

إعلان عن قلب وحيد

دار الكنزي للنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

محمد صلاح شديد

المدير العام

إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

مدير النشر

مهند يحيى

الكتاب : إعلان عن قلب وحيد

تأليف : محمد حسن خليفة

تصنيف الكتاب : مجموعة قصصية

إخراج : أحمد عبد الحليم

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ١٤٠٤٥ / ٢٠١٩

الترقيم الدولي : 7 - 39 - 6660 - 977 - 978

All Rights Reserved

Alkanzy for Publishing and Distribution

+01062104822

Alkanzy.co@gmail.com

info@alkanzy.net

محفوظ
جميع الحقوق

إعلان عن قلب وحيد

مجموعة قصصية

محمد حسن خليفة

إلى أبي الغزير رحمه الله

«أنا ضواحي بلدة غير موجودة، التعليق المسترسل على
كتاب لم يكتب قط . أنا لا أحد على الإطلاق . لا
أعرف كيف أشعر، كيف أفكر، كيف
أريد . أنا شخصية في رواية غير مكتوبة، أنطلق
في الهواء، متناثرًا ولم يحدث قط أن كنت، بين أحلام
شخص لم يعرف كيف يكملني».

فرناندو ويسوا - كتاب اللاطمأنينة .

فكرة ظلّ ما

هل رأيت هذا من قبل؟

كان يتكئ على ظله الذي يسبقه، فينفلت منه، ويجري
صارخاً، طالباً النجدة!
إنّ ظلي يحاول سرقتي.

كيف، وأنت الذي يتكئ عليه، جيئةً وذهاباً؟

خدعني، في البداية أقسم أنّ لا رفيق له إلّاي، يقول إنّ
الوحدة تنهشه، ويستأنس بي في السكون والحركة.

يومًا كنت أحاول أنّ أسبقه، فأضع قدمي اليمنى عليه،
فيمتد ويقفز للأمام ككرة مطاطية، لعبة خيالية مثله، يكره
المنطقية، وينط في أي حديث عابر في الشارع، مرّة يسب
ببذاءة فتتكسر أسناني الأمامية، ومرّة يسرق! كان ديكًا
أسودَ ممن يُستخدمون في المصارعة، لم أكن أعرف أنّ هنا
مصارعة ديك، الرّهان عليها كسباق الأحصنة!

سألته، فيمَ تستخدمه يا أحمق؟ أنا أكل كثيرًا، لا أحرملك
من شيء، رده كان: إنّ لي صورة شخصية، كيأنا أحاول أن
أنفرد به، أنت تمنعني من الوصول إليه، أنت كالجدار
الأصم، لا تتزحزح قدر أنملة.

نحن واحد.. إذا انسلخت عني، تموت، تنتهي!

لا يهم. التجربة تستحق.

المشكلة الآن أن أجد جسداً آخر، أقل تمرداً منك، يفعل ما أطلبه.

فكرتك مجنونة، لا أعرف إن كان عقلي هو من يصور لك هذه الأفكار الغريبة، لكن حتى كيف يصدر العقل فكرة ما لظل؟

بالأمس أطفأت أنوار الغرفة ما عدا مصباح في مواجهة المكتبة، فظهر أمامي بهيئته الغريبة التي تشبهني أحياناً قائلاً: ما رأيك في أن تبيع لي المكتبة؟

- هل تمتلك ما لا؟

- كثرة انتقالي من ظل رجل لآخر، أكسبني بعض المال.

- هل يحدث أن يتقل ظلُّ رجلٍ ما لآخر؟

- نعم بعد الممات، وأحياناً أثناء الحياة!

- إذن لا يموت الظل.

- لا، نظرياً فقط، من واقع خبرتي: الحالات التي سُجلت كانت بعد الممات، لكن لم تُسجل حالة أن يتقل ظل لآخر أثناء الحياة.

- فكرتك خبيثة.

- أنا بصدد التجربة، أراك في حيرة شديدة!

- كيف نتحدث الآن وجهًا لوجه؟ أسألك فتجيب،
أنت تتصرف كأنك كيان قائم بذاته، أنت حتى لا تبدولي
كمَن يحتاج إلى جسد.

- اعتقدتُ هذا، لكن على الصورة أن تكتمل، الجوهر
هنا لا يهم.

- أنا لا أفهمك، بالأحرى لا أفهمني أنا.

- وهو المطلوب.

- اغرب عن وجهي الآن، سوف أُضيءُ الغرفة هربًا من
أفكارك المزعجة، إنَّها تدور في فلك الميتافيزيقية، إن كُنت
أفهم الكلمة.

أُضيئتُ الغرفة، فذهب بعيدًا ينأى بنفسه، عن عقلي
وغرائبيتي، ثلاث ليالٍ لم أره، علَّه الآن عاكف على تنفيذ
فكرته، لن تتم إلَّا بي، أو من خلال أحق يسلم له روحه.
هو يفكر بأنانية مفرطة، أو عن طريق المصلحة! ولديه
ما يكفي من الغطرسة.

- تعلم الآن أي طريق أسلك؟

- إذن، أنت تظهر الآن في أي وقت تريد.
- التجربة تنجح، ونعم هي، حتى وإن كانت شخصية.
- أنت لا تدرك العواقب، وقبل أن تتفوه ثانية؛ كيف أتعامل معك؟ هل أقول أنت، أم أنتِ، لا أقصد إهانة، لكن لا أستطيع تحديد جنس لك.
- كما قلت، أنا في طور التجربة، نادني كيفما شئت، أنت مناسبة.
- لا تصور أنني أتعامل مع مسخ بالتأكيد، أنا لا أعرف كنهه بعد، لكن حتى لا تخلق هذه الصورة.
- تعامل معها على أنها فكرة، هل قرأت لنيشه؟
- لا تحاول، نيته بريء من شطحاتك الفكرية.
- يبقى له يد في الأمر، مهما حاولت إبعاده.
- حتى هذه اللحظة أنا مؤمن فقط بوجودك كظل.
- إن قلت لا أهتم، فهذا يعني أنني أكذب، تصديقك للفكرة هدف أسمى لدي.
- إذن الصدق، الكذب، الأخلاق، الشرف، الأمانة، كُل هذه الأشياء عندك مهمة.

- نعم وإلا كيف أحيّا بين بني البشر، أنا أبني كيّاناً
ظاهره إنسان، لكن يفوقه.

- آه رأسي أصبح ثقيلاً.

- إنّها القراءة!

- أنت تتصرف مثلهم.

- أنا أتعلم.

- الشك يدفع للبحث. وللتعبير عن أفكارك، يلزمك
الشجاعة. الوحدة شيء طبيعي، وعليك أن تتقبل فكرة
التخلي عنك.

- وحتى تنفذ فكرتك، ينبغي أن تمرر هذا السهم السّام
إلى عقلي.

- لا شيء يرضيك، حتى الحرية ليست بحل كافٍ للمشكلة.

- أي حرية تقصد؟

- حرية دون قيد أو شرط، كاملة!

- إذا كنت تعتقد أن الحرية الكاملة ستكون من نصيبك،
إذا حصلت على كيّانك، فأنت واهم. عيشك مرهون بي،
عليك أن تفهم، ولو صدقت أن التجربة ستنجح، وتنسلخ

عن المنشأ والأصل، هذا يعني شيئاً واحداً، أنني سأموت،
لا حل غيره، وبموتي تفشل التجربة.

- الحيوان كما الإنسان له ظل، ولا أمانع أن أتخذهم
فئران تجارب، حتى تتحقق الغاية، سوف أقول كما
تقولون: إنها مجرد وسيلة.

نمت بعد حديث مُرهق مع ظلي، من يحاول سرقتي،
كُنْتُ قد أطفأت النور، ما كان يدور في ذهني حينها، ماذا
لو نجح؟

حاولت طرد الفكرة، كما أطرده. لا فائدة. تمددت على
السريـر بعد أن نزعـت عني الملاءة، انفتحت اللـمبة الأمامية
في البداية، كان أسودّ، نعم شكله، عيناه كانتا كبيرتين،
تـحـمـلـقـان بشدة، قدماه صغيرتان، كذلك أصابع يده، رقبته
طويلة، لا تناسب وجهه، إذا مددت يدك فيه، ربما تعبـر
للناحية الثانية، أو تختفي في ظله!

التجربة نجحت، وأنا لم أمت، لا أسمع مِوَاء القطـة،
كانت جثة هامدة، هو من فعل هذه الفعلة، وها صوته
يخرج نحيلاً ثم بعد دقائق يزداد خشونة، وزنه لا يتعدى
الكيلوجرامات، يطير لو نفخت فيه، رغم هذا يتغلب على
الجاذبية.

التجربة نجحت مع الحيوانات يا رفيقي في الظل، طوال
الوقت تعتبر بحسابات خيالية أنني الظل، لا، أنت ظلي لا
أنا.

الآن، روحك مقابل كيان كامل يفوق تصورك،
اعذرني، قد امتلأت بكم، لا هروب من الفكرة، حاولت،
لكن حتى أنا صنعت لنفسي شيطاناً يأمرني، علّه جنون،
محاولة، في النهاية هي فكرة ظل ما، سستتهي لا بطرقة
أصابع ولا إرادة مني.

موت نجمت

كانت تفسر لي أحلامي مهما بدت صعبة وساذجة،
وتركني كثيرًا أفكر فيما قالت، حملتني صغيرًا على كتفها
ودارت بي على مستشفيات الأطفال في القاهرة، حتى أذن
الله بالشفاء، وكأي طفل صغير أحلامه لا تتعدى الحلوى
والنوم كما يشتهي والسهر كذلك، كانت رغبتني في السماع
لحكيها أقوى، حكايات قديمة دارت في القرية، وحكايات
خيالية ذكرت في ألف ليلة وليلة، حفظتها في مكتبة أبيها
الشيخ علي، المتفقه في الدين وعلومه، وكبير عائلته وقريته،
يلجأ إليه العمدة كثيرًا متحايلاً عليه في الدين، محاولاً ضمه
إلى عباة الكُحلية التي إذا دخلتَ فيها لرأيتَ كم أرض
أصبحت في حيازته، وكم حُجَّة بيت زورًا دخلت جيبه،
وكم محاولة زواج من قاصرات تنتهي بعد سنة، وبعض
القروش في أيدٍ العائلة حتى تسكت وترضى بما قُسم لها،
إلا أن محاولاته مع الشيخ علي فاشلة، لم يجد طريقًا واحدًا
يستطيع أن يسلكه، إلا ويجد فيه الشيخ قد ظهر، وسمعه
الناس، وتجاوبوا مع حديثه، ورضوا بقضائه، فيعود العمدة
إلى بيته جالسًا على كنبته الموضوعة أمام البيت مقصوع
الجسد، يفكر في طريقة جديدة علَّه يخرج منها بنتيجة مع
الشيخ علي الذي ينط له في كل كلمة.

حكّت الجدة لي مرة عن بيّتهم الواقع في الناحية الغربية من البلدة، الذي بات يسكنه الآن أكبر بناتها راوية، بعد أن تخلّت عنه راضيه، وأنهم في فترة بناءه وجدوا سرداباً قد فُتح بعد حفر الأساس، ومن سرداب لآخر، وجدوا مقبرة بها من كنوز مصر القديمة ما يجعل الحكومة تفتتح مُتحفًا جديدًا، ويسمونه على اسم زوجها الشيخ عبد الله، وقد تم تقسيم الكنز على أفراد الأسرة بالتساوي، من أخوات الشيخ عبد الله وبنات وأولاد الجدة، أما هي فرفضت أن تأخذ شيئاً إلاّ قطعة من المرمر يعود نسبها إلى الملكة «موت نجمت» زوجة حور محب آخر ملوك أسرته. حين سألتها: لمّ وقع اختيارك على تلك القطعة؟ سرحت طويلاً، وقامت من مجلسها تدور في الغرفة، تنبش في أشياء قديمة، ترمي ملابس، وقطعاً ذهبية، وأنية فخّارية، حتى عادت لسريها والتفت بالملاءة ثانية.

كان كيساً من الصوف له رقبة تُقفل بحزام، لونه أبيض باهت، تنهّدت ناظرة إلىّ بعينها الزرقاوين، وبهدوءٍ شديد، راحت تُخرج من الكيس قطعة مرمرية، ترفعها عاليًا ناحية النور، وتنطق الاسم بوضوح «موت نجمت»، أخبرني والدك أن البعض يظن أنها شقيقة للملكة نفرتيتي، هذا حين كان يدرس الآثار، أطلعني ساعتها على تقارير

ورسومات باللغة الإنجليزية، لكن لم أفهم كلمة إلا بعد أن قام بالترجمة، وبعد أن فرغ، تأكد لي أن اختياري لتلك القطعة كان في محله، وجالبًا للحظ، أحيانًا كانت هي مصدر السعادة، كنت أتخيل وأنا ممسكة بتلك القطعة في يدي قصة من ليالي ألف ليلة وليلة، وأنصّب نفسي مكان «موت نجمت»، وأتملى منها ومن أختها. جدك ظن فيّ مرات عديدة أنني جُننت، وعليه أن يطلب المارستان ليضعوني فيه.

كنت أضحك قائلةً: أنت تتاجر فيه، لكن لم تشعر يوماً بجماله. أمسكت بيدي وبدأت تقرأ الكف، لم أكن أعرف أن لها هذه الموهبة، كانت تقف في المنتصف حائرة، وتعيد الخط من أوله، تربكني بهذه النظرة، وتسرد لنفسها كلامًا لا أفهمه، غطّت كف يدي مرّة ومرتين بمنديلها، وأشعر بثقل أسفله، فتنزعه كالمجنونة مبتسمة، وتعود اليد فارغة خفيفة. كانت نظرة طويلة مُربكة وتحوي أشياء كثيرة، أنتظر أن تفصح عنها.

بعد أن فرغت ورمت يدي، هبت واقفة على سريرها النحاسي، سندتها حتى نزلت على الأرضية، فكانت مشيتها كالمنتهى من حلقة ذكرٍ صوفية، وتوقفت في آخر الغرفة عند شباكٍ ممتلئ بالقضبان الحديدية الصدئة، مفتوح

على نور الفجر، شربت من القلة الموضوعة في الصينية، وأخرجت القطعة المرمية مُقبَّلةً إياها وتحتضنها، كأن هذا مساغها، واضعة إياه على صدرها ولا تود فراقه، وبصوتٍ عذبٍ يأتي من بعيدٍ نادتنِي، فأقبلتُ وبِي رهبة، أسندت ذراعها على كتفي، أشعر بسخونةٍ شديدةٍ تعبر منه، وبعينٍ ضيقةٍ، وشفاهٍ منسدلةٍ، وأنفاسٍ متقطعةٍ راحت تقول: كانت صغيرة، تمت طفلاً وماتت وهي حامل فيه، عظامه الطرية في طور التكوين، حفظها التحنيط مع الجثة، وهذه القطعة وجدوها في المقبرة، محفوظة في صندوق خاص من الأبنوس، كف يدك يبعث في نفسي ذكريات حاولت طردها، ولم أفلح، كييعي للقطعة في محاولة بائسة للتخلص مما توحيه في نفسي الموحشة، رؤى بصرية تأتي من بعيد جداً، قديمة العمر والرائحة، إلا إنها تتمثل أمامي حية، كلما ارتديتها على صدري، كأن تخرج من عصا موسى ثعابين تلقف كل ما يسعى، نار مشتعلة، أنت زدتها بيدك النحيلة هذه.

- ماذا رأيت؟ كلامك يرعبني، أي جو مقبضٍ هذا الذي تحاولين وضعي فيه؟

- مُقدر ومكتوب!

- خرفانة! المارستان طريقه قريب يا جدة!

- لم يسمعني ساعتها، هج في الغربية!

- مين؟

- أنت مثله، تموت الشجرة، وتنبت بذرة!

- اتكلمي الله يرجعلك عقلك، ويثبته عندي!

- أبوك، قال عني أيامها إني مجنونة، اليوم تقولي إنت خرفانة، جدك حبسني في الغرفة، باب يهد جبل، وشباك قضبانه حديد، مش مجنونة أنا ولا خرفانة، لما قرأت الي في إيده، هيموت في الأربعين، ما كله مقدر ومكتوب، تفرق إيه أربعين ولا مائة.

- حكيتي موته يا جدة؟

- مش بيدي، ده روعي، هتمناله الموت برضه؟! ابني البكر وعكازي، بس ده مصيره، كان لازم يلبس القطعة في رقبته، ويسمع كلامها وكلامي!

- مين دي، وليه يسمعها؟

- «موت»! ما ليش طاقة أنا أمنعها!

- دي ماتت من كم ألف سنة!

- ما أبوك مات، وأنت هاه قدامي، نسخة منه.

- تقصدي إيه؟

- «موت نجمت» ماتت آه، ومعها طفلها، وأبوك مات آه، بس ساب طفل، أنت، والقطعة دي يتمد سلسال موت بالي يلبسها، مش شرط يكون من النسل، لكن إذا اختارته ولبس القطعة في صدره، سلسلها يطول. أبوك رفضها، وهجّ من وشي، كان لازم يلبسها، يجري إيه لو دور على قصتها، ولا المقبرة الكبيرة اللي فيها حاجتها.

- يعني يا جدة القطعة طريق للمقبرة؟

- يدك هي الطريق، القطعة وسيلة لاختيار الشخص المناسب. جدك منعني، بس اتمسكت بيها، حافظت عليها لأجلك.

- أنا؟! وليه؟ ما كفاية أبويا!

- يا بني ما قلنا مقدر ومكتوب، طريقك كده، ويدك هتوديك إليه.

- هتجن يا جدة!

- نفرتيتي أول الخط، وحتماً ولا بد هتوه، البس القطعة في صدرك، بيان ليك طريق خلف طريق، اقرأ آيات أبوك، موجودة في جسدك علامة. آمن إن لـ «موت نجمت» حق في الظهور، الحق يرجع لأصحابه ولو بعد ألف سنة.

خاضعاً لها، عرّنتني من ملابسي، وفي مرآة كبيرة ظهرت
الآيات على ظهري، بعد أن مسّت جرحاً قديماً، ووضعة
عليه القطعة المرمية.

وعلى كف يدي انشقت الخطوط وخرج نور عظيم،
ونقل ما في الظهر أمامي، دق عنيف داخلي، وقدمي
متجمدة، بين الخطوة والخطوة مائة سنة، شيئاً فشيئاً أسقط
في بئر لا آخر له، وصوت الجدة في كل ركن، يتبعني أينما
حللت، تغطسني فيه وتدعك جسدي بطمي النيل، وتتلو
ما لا أفهمه.

صحراء واسعة، أحمل فأساً وحبلاً متيناً، أنظر في يدي
بين لحظة وأخرى، أقيس مسافة قرب حجارة ضخمة
كتلك المستخدمة في الهرم الأكبر، نزعت الفأس وضربت
بها على الأرض، شبراً شبرين، تتسع الحفرة، الآن تبدو على
شكل قبر، العرق يغمر الجسد والقطعة، الأرض تنفتح،
قريباً يخرج من باطنها آية تشهد على «موت نجمت».

بَيْتُ الْعَجُوزِ

لم يكن إلا بيتاً قديماً، هكذا اعتقدت!

لكن بعد فترة من العيش فيه، تأكدت أنه أكثر من هذا، لا يهم كم هي الحوائط متهالكة وبها كثير من الشروخ، ولا أرضية البيت التي تُحدث صريراً يسمعه المارة في آخر الشارع المسمّى شارع الحديقة، ولا اللون الأصفر العالق في السقف، وتلك الشبكة الكهربائية القديمة الموجودة به. مكون هو من طابقين، يحلوي العيش في الطابق الثاني، أحب هذا البيت بما عليه، ربما يكون الأمر مجرد التعود، لكن لا هذا سخيف، التعود يكون لسبب، وفي رأيي السبب هو أنني أحببته!

ربما هناك شيء آخر كان سبباً، وهو تلك الحديقة التي تحاوطه، فأشجار البرتقال والليمون ورائحة الريحان والفل تساعدني على النوم بأريحية تامة، وتعطي البيت رائحة خاصة ومحبة.

جاري مزعج جداً، لا أحب الحديث معه، وأكره تلك الكلمة التي يرددّها كثيراً: بيتي مثالي!

كم هي مزعجة، أكره أن يكون كل شيء مُرتباً، وذالون يلمع. بيت مرعب أن تكون به كل هذه التحف، لا تستطيع الاقتراب من أي قطعة، فقط مسموح لعينيك المشاهدة،

وبعد لحظات معدودة ستصاب بالملل وربما بالتأفف: كم هو بيت منظم، ويُدار بالساعة.

لا ذرة غبار عالقة لا بالحوائط والأرضية، ولا بتلك الملابس الأنيقة.

يا للأسف إنه تمثال يعيش في متحف!

وتلك الفتاة التي لم تتزوج أبدًا في المنزل المواجه لي، تظل تردد: هل ما زلت لا تفتقد الأحداث الجارية في المدينة؟

وردي دائمًا لها كان: لا، إنها تصيبي بالكآبة!

وردها دائمًا عليّ: ربما العزلة مفيدة، لكن في النهاية هي قاتلة.

ولا يكون مني إلّا الصمت.

أسمعهم وهم يطلقون عليّ في الشارع اسم العجوز الذي أحب العزلة، واختار الصمت رفيقه، وعشق البيوت القديمة المتهاكة.

المالكة أخبرتني سرًا عن هذا البيت، لا أعرف إن كان مجرد دعاية أم حقيقة!

« لك هذا السر أيها العجوز »، قالتها ضاحكة.

وبيني وبين نفسي أقول: إذا كنت أنا العجوز، فماذا
تُسمين أنت؟

- السر أن هذا البيت، لن يدع صاحبه يغادره في مرّة
دون عودة إليه، أو يُقدم على بيعه!

- ماذا، كيف؟

- لا أعرف السبب يا عجوز.

- لكن لحظة من فضلك، أنتِ المالكة لهذا البيت،
وتقولين الآن إنه لن يدع صاحبه يغادره دون عودة، أو
يقدم على بيعه، وأنا أرى الآن أنكِ في محاولة لبيعه.

- هذا صحيح.

- اسمع البيت لا يترك إلّا مَنْ أحبه فقط، أما مَنْ كرهه
فلن يَسمح له بالكموث فيه ولو لدقيقة! واليوم أنتِ تكمل
فيه شهرك الرابع، أي أنه لم يحبك فقط، بل صرت صاحبه.

- لكن ما زلت لا أفهم، كيف يترك هكذا تبيعينه،
هل هو لا يحبك، ما أعرفه أنكِ عشتِ فيه ثلاثين سنة،
عمرٌ بحاله!

- وهل تعتقد أنني سوف أحيا بعد بيعه؟

- آه، فهمت الآن، لن يترك صاحبه إلّا بعد الموت.

- ويطمئن أنه في القبر يا عجوز.
- سئمت من قولك هذه الكلمة، أنت أكبر مني بخمس سنوات، فمن منا العجوز إذن؟
- أنت تفتقد للياقة!
- وأنت تحسبن نفسك مرحة.
-
- متى نوقع العقد يا سيدتي الجميلة؟
- امم، اترك لي أسبوعين، لديّ قريبة في الريف أود زيارتها قبل أن تنتهي المدة.
- حسنًا، لك كل الوقت.
- عظيم، إذن عليّ المغادرة.
- عذرًا، لديّ شك، في الحقيقة كل ما قولته لا يندرج تحت الشك، بل أسمىه خرافة.
- آاه يا عجوز، اسمعني، لن أخبرك إلاّ بجملة واحدة: سوف ترى بنفسك.
- جيد، الغد ليس ببعيد.
- سلام.

غادرت المالكة، ولمدة أسبوعين لا أفكر إلا في البيت وتلك القصة الخرافية.

من الأمور الغريبة التي حدثت في هذين الأسبوعين، أن البيت في أسبوعه الأول بعد أن غادرت المالكة كان في حالة غير طبيعية، حيث إنني لم أعد أسمع صوت صرير الأرضية الخشبية، والكثير من الشقوق في الجدران اختفت، أو شُبِّه لي أنها اختفت، وذلك اللون الأصفر العالق في السقف صار أبيض كأنه دُهن من جديد. الأغرب أنه مع بداية الأسبوع الثاني من المدة المحددة، ومع اقتراب عودة المالكة، عاد البيت إلى حالته القديمة، بقيت لحظات أحرق في كل ركن فيه، لم يكن قد تعودت بعد على حالته الجديدة، وما إن عاد إلى سابق عهده أحسست براحة، لكنني في نفس الوقت شعرت أن البيت يُهيئ نفسه للحزن، ومع مرور أيام الأسبوع الثاني تأكدت أنه يعيش هذه الحالة.

غريبٌ هذا بحق، البيت يشعر مثل البشر، يحزن ويفرح، بل يصير رفيق للملكة بتقدم العمر.

اليوم آخر يوم من المدة المحددة، في الساعة التاسعة صباحًا كانت المالكة أمام البيت، نزلت مُسرَّعًا لها، وقد اتشح البيت بستائر سوداء، ولم تُفتح نافذة لعبور شعاع ضوء، كنت قد ارتديت بدلة سوداء ولا أعرف لماذا

اتخذت قرارًا مثل هذا، أأكون أنا أيضًا في حالة حزن مثل البيت؟!

فتحت الباب، ووجدتها بكامل أناقتها، غريبة!

هي تبدو في سن العشرين، ما هذا الجنون! ترتدي فستانًا أبيض يشبه إلى حد كبير ملابس الأميرات، لأول مرة أركز في عينيها وأكتشف أن لونيها أزرق، شعرها كان برتقالي اللون وذات نمش على الوجه، مدت يدها، قبلتها، ودعوته للدخول لبيتها.

- أرجو أن لا أكون قد سببت لك أي إزعاج، لكنني وددت أن أنجز المهمة.

- لا لم تسببي أي إزعاج، أنا كنت في انتظارك.

- حسنًا، هذا هو العقد لتراجعه أنت، أو ترسله إلى المحامي.

- لا نحتاج إلى محامٍ، سوف أراجعه أنا.

بقيت في مكاني أراجع العقد، وهي انطلقت في البيت تتفحص كل ركن فيه، وتلمس الجدران بشقوقها، وتستشق رائحة أشجار الحديقة، وتقول: هل تعلم أن هذا الشارع قد سمي بشارع الحديقة نسبةً لحديقة البيت.

أجبتها بهزة رأس خفيفة، وعادت تدور بعينها في البيت،
توقفت عن المراجعة، ونظرت نحوها، أقول في سري: هي
تودع البيت، بيتها، أعلم بهذا.

التفتت قائلة: أرى أنك انتهيت.

- نعم.

- حسناً أيها العجوز الأنيق، لنوقع العقد.

- بسطت الورقة على المنضدة وأخذت القلم ومضيت،
ومضت هي.

ابتسمت لكنها ابتسامة حزينة.

قبل أن تغادر البيت، سألتها عن وجهتها، فقالت: من
أسبوعين قلت لك سوف ترى بنفسك، اليوم لا وجهة
محددة لي، فقط عليّ الانتظار، وحين ينتهي الوقت سوف
تعرف إلى أين وجهتي.

غادرت، وعاد كل شيء إلى اللون الأسود، لم تزرنا
الشمس هذا اليوم.

بعد ثلاثة أيام وصل لي خطاب من محامي المالكة.

في البداية كنت أحسبه بخصوص تسجيل العقد، لكن
حين قرأته اتضح لي غير ذلك.

سيدي العزيز، مالك البيت الجديد، أنا مُحامي المالكة السابقة للبيت، يؤسفني أن أخبرك أن السيدة المالكة توفت بالأمس في فندق قريب من بيتك، أتمنى أن تحضر الجنازة، فهي لم تكن على علاقة بالكثير.

تحياتي لك، متمنياً أن تنعم بالبيت.

حضرت الجنازة، وبالفعل كانت صغيرة خالية من الناس، لم يحضر إلا المحامي وقريبة المالكة من الريف، وأنا. في الجنازة أدركتُ أنني بالفعل رجل عجوز مثل ما كانت تدعوني، حين هممتُ بالمغادرة استوقفتني قريبة المالكة من الريف.

- أنت إذن المالك الجديد للبيت؟

- نعم.

- أتعلم، هو لعنة على صاحبه؟

- بالطبع أعلم، لقد أخبرتني بكل شيء.

- لتجهز نفسك إذن لملاقاة نفس المصير.

عُدْتُ إلى البيت سريعاً، وبقيت فيه لا أغادره إلا على فترات متقطعة.

الآن أنا في السبعين، مرَّ على بقائي هنا ما يقرب من العشرين عامًا، وأشعر بأن النهاية قريبة، من عشر سنوات اتخذت القلم والورقة أصدقاء لي، وبمساعدة البيت مرَّ الوقت سريعًا.

أنا أكتب إليكم الآن وأنا على وشك المغادرة نهائيًا،

نعم فقد قررت بيع البيت، وأبلغت المحامي بقراري هذا.

أرملة تبلغ من العمر خمسين عامًا، لم تُرزق بأولاد من قبل، ها هي تريد أن تشتري المنزل، دون سابق تجربة البقاء فيه .

تم البيع بسرعة، ولم أبلغ المالكة الجديدة بأي شيء، هذا هو قدرها، سوف تعرف قريبًا ما سيحدث لها.

جهزت ثلاثة خطابات:

الأول للمحامي أبلغه فيه أنني بعت البيت، والمالكة له سوف تأتيك قريبًا لتخلص الإجراءات المعتادة، وأتمنى منك أن تحضر جنازتي إن مت في العاجل القريب.

الثاني لقريبة المالكة الأولى من الريف، أخبرها أن البيت قد تم بيعه، ولا سبيل للتخلص من هذه اللعنة، وبما أن البيع قد تم فموعدى قد حان، أتمنى أن تحضري الجنازة،

وأن تخبري المالكة الجديدة بكل ما تعرفينه، لم أقدر أن أبوح لها بكلمة.

قبل أن أكتب الخطاب الثالث، فكرت كثيرًا لمن أكتبه، بعد فترة قررت أن أكتبه للمالكة الجديدة، خوفًا ألا تخبرها القرية من الريف بشيء.

بدأت كتابة الخطاب، وحكيت لها كل شيء أعرفه عن البيت، بل حكيت لها عن السنين التي قضيتها في هذا البيت، وعن آخر لقاء لي بالمالكة القديمة، دعوتها أيضًا أن تأتي الجنازة، فلا أصدقاء كثيرين لي في هذه الحياة.

إلى البريد توجهت وأودعت الخطابات جميعها على كل العناوين، وعدت إلى الفندق القريب من البيت أنتظر الموت!



لحظة في حضن الحياة

انفتحت عيناه على فراشةٍ خرجت من يومٍ أو يومين من
شَرَفَتِها، وربما غداً تنتهي حياتها. خموله والبرد الشديد
المُصاب به يَرجع سببه إلى بقاءه أمس في منتصف الصالة
عارياً من كُلِّ شيء، متحدّياً بهذا حرارة أغسطس اللزجة،
كان قد فتح مَروحة السقف توزع الهواء على عِظامه التي
أصبحت هشةً.

ينتظرها منذ ساعتين حتى تلعب حركتها على رُقعة
الشطرنج الزجاجي، آخر دور هزيمته، الآن هو مُتقدم عليها
بفارق نقطة واحدة.

- ليل، لن تطير الدُّرة المقلية التي تعدينها، سأشتري
لك من على الكورنيش، دورك حان منذ مدة!

- ما لكَ تنتظر بلهفة كي أغلبك ثانية؟

- كان هذا قديماً، الآن أنا المتقدم.

- انظر لهذه الحركة، ضاع الفيل! يجب أن تعتني بالملك
وتوفر له الحماية. أف حر جداً يا جابر.

- لو أنك وفرت ثمن الأريكة، لكننا اشترينا مكيف
الهواء بدل المروحة الخربة، لا نأخذ منها إلا الصرصة.

- كوني رحيمةً بي وبعظامي، لن أحتمل الجلوس في غرفة النوم، لذا اشترت بالمال الأريكة!
- تهانينا لك، انعم بها.
- ستشكريني في الشتاء حين تجلسين بجواري متدثرة بالبطانية ونحن نشاهد فيلم السهرة، أعتقد أنه سيكون عن حرب عصابات شرسة، ودم في كل أنحاء الصالة.
- أنت تفتقد للرومانسية.
- قديمًا كنتُ أشتري لك الورد.
- نعم، الآن تشتري لي البصل والثوم.
- أحبك يا ليل.
- أنا أيضًا يا جابر، أخاف الموت قبلك!
- لا تقولي هذا، الحياة طويلة.
- نعم، نحن الآن في الستين، طويلة أو قصيرة سأستمع.
- الذرة المقلية تُطرقع كأنها فشار، دقائق قليلة وتبدأ السهرة.
- سأحضرها، وعدني أن تُحضر لي في الاستراحة من يديك قهوة.

- تعلم، أنا أحب مَلَمْسَهم جدًّا، وَهذه الكرمشة، آه
أنا أملك مثلها، من سنوات قليلة كنت أخاف من مصير
يديّ، الآن أحبهم، ناعمة ورقيقة من الكف، الجلد متغضن
بعض الشيء، طبقة عازلة لكن ترى تحتهم بوضوح الزرقعة،
وتلك الحبيبات المتناثرة على طول الذراع، انظر إنها تبت
على بطنك العاري كأنها حديقة، وفي رقبتك النحيلة،
رقبتي أنا ثمينة وممتلئة بها، أيضًا على الوجه. أنفك دقيق،
وعيناك بُنيتان، عيناى لونهما زمردى، أعلم أنك لا تفهم في
الألوان، ولا التفرقة بينهم، كل بني جنسك هكذا.

- ليلى رائحتك قوية، أشعر بها في كل مكان، روحك
طاغية وأشياء المنزل وحاجياته تشبع بها، كل ركن هنا
يعرفك جيدًا كأنك أمه، كذلك قلبي يا ليلى، كان خائفًا
أن يرفض والدك الزيجة، قد أصابك بعض الترهل كما
أصابني، لكنى أغوص فيه وألعب كطفل صغير، نعم لم
نرزق بهم، هكذا الدنيا لا تأخذ منها الكثير، أنتِ تكفين.

- تعال معي للمطبخ، أخاف الوحدة!

- الرائحة مغرية.

- تذوق هذه الحبة.

- أوه. الذُّرة لذيذة.

- طعمها، ماذا يبدو؟

أغمض عينه، وراح يمضغ أكثر ويستلذ بالعصارة.

- كقبلة من شفتيكِ يا ليلي، هذا هو طعمها.

- أنتِ خبيث، تحب الأكل كثيرًا.

- وأنتِ فريدة.

- كنت أود أن أسميها هكذا، فريدة! ألاعبها وأضمها
لصدري، ألقمها من ثديّ، أصبحوا الآن مجرد ثمرتين
مترهلتين.

- تعلم يا جابر، حين أتخفف من ملابسي في الغرفة
وأقف أمام المرأة أتفحصهما، في البداية كانت نظرة مُتيم،
ثمرة ناضجة ممتلئة باللبن، لكنه حبيس الظلمة، ثم مع
الوقت تبدّلت النظرة إلى حزن وأحيانًا حسرة، أنا أحب
كل قطعة من جسدي هذا، قديمًا والآن، إلّا هذه التكورات
التي لم يتلقَّمها يومًا فم طفل.

- انظر إنها منتصبّة لأول مرّة منذ فترة، ماذا فعلت
بهذه اللمسة السحرية؟

- أنتِ جميلة، أحسد نفسي عليكِ.

- احتضني بقوة، ضم ذراعك حول خصري، لا
تفلتني مهما حدث، مهما تفهوت بكلام، أو أطلقت عليكِ
السباب، سأخبرك!

- لا ياليلي، لا تعضي!

- لا تفلتني يا جابر، استمر في احتضاني.

- أحبكِ يا ليلي، أنتِ طفلة مدللة، لا تبكي، أنا معكِ،
لن أذهب، حضنكِ دافئ، قلبكِ يسعني بكل ما أحمل من
تناقضات، وساوس وأفكار غريبة، تتحملي حتى هذا المس
الشيطاني الذي يدفعني لارتكاب أشياء حمقاء أحياناً، تركي
العمل وأنا لم أبلغ الثلاثين، جلوسي بالساعات هنا في هذه
الصالة مع هذا الحر، أرسم وأرسم، وتنزلق الألوان على
الأرضية، وتعلق بالستائر، وبالكنبه القديمة.

- ضمنني بقوة أكثر، أحتاج لهذه اللحظة، لا أود أن
تنتهي، عنفني إذا وهنت عظامي وأرادت أن تنسحب،
أمسكُ بها كأنك ممسك بفرشاة في ذروة الإلهام ولا تود
التخلي عنها إلا بعد أن تكمل اللوحة.

هو قادم أشعر به، شكله جميل، كذبت السينا
والروايات في تصويره، احتضني، عينك جميلة، ستبحث
عني وتستعجل الخطى لتراني شابة تجلس في حديقة وتلقم
طفل يشبهك من ثديها.

بقايا ضوء

أشعر بحركة مريبة في هذا المكان، بالأحرى ولأكن مُنصفًا هي مجرد حجرة بداخلها حمام متر في متر لا غير، باقي الخمسين مترًا يشغل الحيز الأكبر منهم مكتبة، هي ليست مكتبة بالشكل المتعارف عليه، بل أرفف موزعة على الجدران بعشوائية شديدة، مع أنني أكره العشوائية!

لكن المساحة هي من تجبرني على تقبلها، تلك الحركة تأتي من حين لآخر، هذه المرة شديدة، ولا أستطيع تحديد موضعًا بعينه.

سحبت من أعلى رأسي كتاب وبدأت القراءة فيه، كان عن أنواع الأسماك الغريبة «أسماك لم تسمع عنها من قبل» هكذا كان العنوان، بين لحظة وأخرى أرفع عيني مُرغمًا باحثًا عن مصدر الصوت ولا جدوى، فقط تزداد الحيرة، وينقطع التركيز، أترك الكتاب، أقف في منتصف الحجرة أمام الكنبه التي أجعلها سرير للنوم وأدور بعيني، أجد شقوقًا كثيرة في الجدران الأربعة، شقوق لا تصلح لعيش كثير من الحيوانات أهمها الفئران، فأنا أكرههم جدًّا، لكن لا أخاف منهم.

لودققت النظر في هذه الشقوق، سأجد صراصير وعناكب، النمل والكثير منه، ربما أجد عصفورة ضلت طريقها، بطبيعة الحال فالذباب يعشش هنا في كل ركن ولا

يحتاج لشق بعينه، الأبراص والسحالي، وربما أجد ثعباناً
مسالماً وصديقاً للإنسان!

يخفي الصوت بعد تلك الرحلة من البحث، عائداً
للأسماك، تمنيت أن أحظى ذات يوم بمجموعة نادرة وجميلة
من الأسماك في حوض زجاجي مع بعض السلاحف
المائية، فأنا لا أصادق الكثير من البشر بل لم أحاول من
الأساس، لا أود خوض علاقة ربما تنتهي في أي لحظة، هذه
الأمية انتهت من فترة كبيرة أصبحت في خزانة الأمنيات
المكتوب لها البقاء كأمية!

صديقي الوحيد والذي انتهت علاقتي به منذ ستين
لأنه تزوج، دائماً كان يخبرني أنني قوقعة بحرية تخشى أن
تطل برأسها للخارج، كما لا تتمنى أن يجرفها التيار للشط
فيصطادها الأطفال جاعلين منها صدفاً ومنفضة سجائر!

أخبرته حينها أن كلامه صحيح، ولا داعي لخوض نقاش
نتيجته محسومة، من بعدها لم أره، حتى فرحه لم يعزمني
عليه، وكحالي دائماً تركت الأشياء تمضي لحال سبيلها.

هنا زنانة صغيرة بها كثير مما أشتهي، وفي الخارج
زنانة كبيرة بها الكثير مما أشتهيه ولا أستطع الفوز به،
وأنا راضٍ وقانع بهذا.

طريقة خفيفة على الباب، أسأل: مين؟

لا رد.

تعود نفس الطريقة مرّة أخرى.

- مين؟

- سعد.

أقول في سري لا أعرف أحداً بهذا الاسم، فتحت الباب ووجدت شاباً لم يكمل الثلاثين بعد، لحية كثيفة، قميص رث ورائحة عرق كريهة كرائحة قميصي الملقى بجوار الكنبه، بنطاله متقطع، لكنّ عينه بها صفاء غريب، وقفت أنتظر أن يخبرني عن نفسه أكثر، لكن يبدو أنه يحدّق فيّ كما أفعل.

- نعم؟

- سعد عمران.

- تشرفنا يا سيدي، ماذا تريد؟

- أنا الساكن الجديد المقابل لغرفتك.

- آه، أهلاً وسهلاً، نورت السطوح يا سعد.

- الشرف لي، اعذرني لكن الغرفة خالية من الكهرباء، وعدني صاحب العمارة أن يأتي بكهربائي غداً ليصلح العطل.

- لا عليك، قال لي نفس الكلام من قبل، في الغالب لن يصلح العطل إلا بعد أسبوع.

- إذن ضحك عليّ؟!

- هاهه، الموضوع أبسط من كده، هو شخص بارد فقط، يفعل الأمور وقتما تحلو له، ثوانٍ عندي كشاف ربما ينفعك.

- عدت له بكشاف قديم، وحاولت جاهداً في تشغيله حتى نجحت.

- تفضل، الحمد لله أنه ببطارية ولا يحتاج لشحن كهرباء.

- شكراً يا...

- اسمي سعد.

- غريبة! تشرفنا يا سعد.

- تشرفنا يا سعد.

عدت لعالم الأسماك الغريبة التي لم أسمع عنها من قبل، لكن كنت أفكر في هذا المدعو سعد، ما حكايته؟
هنا انتبهت لنفسي، ولأول مرة أضبطها تهتم بأحدٍ كان،
حتى إني وجدتها تضحك ضحكة خالية من السخرية.

صوت بدأ يتردد فى الأركان، ليس من الغرفة أنا متأكد
من هذا!

فتحت الباب، فزاد الصوت أكثر واتضح، ها عود،
كيف أجهل صوته وأبى كان عوَّادًا، طوال الليل يضرب
عليه ولا يمل حتى تتلقفه أمى بالشتيمة والدعاء، مشيت
خلف الصوت حتى الغرفة المقابلة، غرفة سعد الساكن
الجديد.

طريقة خفيفة على الباب، فأنا أكره الصوت العالى، فتح
لى مرحبًا بالضرب على الأوتار بطريقة عشوائية.

- أهلاً سعد، تفضل.

- شكرًا، لكن سمعت صوت العود فا....

- هل أزعجتك؟

- لا، فقط أعجبني الصوت، والعزف بالتأكيد.

- طب تفضل يا سعد تفضل.

دخلت الغرفة ومن خلال بقايا الضوء الموجود تطلعت
فى هيئتها، تمامًا شبيهة لغرفتي، ليس المساحة فقط بل حتى
الكتب، الفرق أنها أكوام فوق بعضها لم ترتب بعد.

- أتمنى أن أعد لك الشاي.

- لا تتعب نفسك، أنا فقط سأذهب بعد قليل.

- هنشرب شاي يا سعد، تحب كم معلقة سكر؟

ابتسامة بلهاء على فمي.

- كم معلقة سكر؟

- اتنين يا سعد.

أتاني بالشاي، وكنت في حاجة إليه، شرب من كوبه
القليل، وأشار للعود: بتعرف تعزف؟

- الحقيقة مجربتش قبل كده.

- امسك.

أخذت العود بين أحضاني، وبدأت أحاول، ألمس
الأوتار في خوف وشوق، وأنظر للنقوش المحفورة عليه،
حتى بقيت لمدة ربع ساعة أو يزيد أعزف دون انقطاع،
وهو في ذهول تام.

- وبتقول مبتعرفش تعزف، ده أنا أتعلم منك.

- الحقيقة والذي كان عوَّادًا، علمني من صغري، لكن
بعد أن مات قررت ألا أمسّه مرّة ثانية، لذا فكرت أنني
لن أعرف العزف مرّة أخرى.

- ده زي الهوا يا سعد، تقدر تستغني عن الهوا؟
- لا، أموت!
- يبجري في دمك، زيي تمام، زي ما يبجري في دمي
كذلك حب القراءة والكتب.
- هممت بالكلام، فقاطعني سريعًا:
- عارف، إنت كمان زيي، رأيت الكتب عندك.
- أنت شغال إيه؟
- أنا عاطل، زيك تمام، أصبحت أكثر الوظائف إقبالًا.
- شكلك بتاع سياسة يا سعد، خاف على نفسك!
- طلقته بحكم من عمك عمران.
- وهل رضي بعدها؟
- نعم، حتى إنه بات يتكلم فيها ليل نهار.
- الصوت أصبح ضائعًا يا سعد، لا أملك إلا العزف
ببُكاءٍ وحرقة حتى يهد الأرض، يذكرني أني ما زلت موجودًا.
- تشرب حشيش؟
- معاك؟

- لآ؁ بس نفسي فيه؁ زي ما نفسي في كاس؁ مع أني لم
أشربه مطلقآ!

- أهلاً بك في الزنانة الكبرى؁ حيث ما تشتهي ولا
تستطع نيله.

- الفجر يقترب؁ سوف أغادر يا سعد؁ لنا بقية.

- انتظر قليلاً؁ ما زال في هذا الكشاف بقايا ضوء.

- تنعم بهم؁ أما أنا فالنوم يناديني.

غادرت غرفة سعد؁ وأشياء كثيرة تعترك داخلي؁ أشعر
أنني أقرب على جلدٍ للذات وتأنيب للضمير؁ كيف بهذه
السهولة انسقت لهذا الشخص ولحكايته؟ ألا يكفيني
حكايتي التي بدأت ولا أعرف متى تنتهي؟ بل إنني تواق
لمعرفة موعد المغادرة!

نمت نومآ عميقآ لم أظفر به من قبل؁ كانت الساعة
العاشرة حين سمعت طرقآ عنيفآ على الباب؁ قمت فزعآ
من الحيوانية التي يتعامل بها الطارق علي؁ فتحت الباب
وإذ بصاحب العمارة الحاج سيد بوجهه العابس دائماً؁
وجلبابه الأسود الذي لا يغيره مهما كانت المناسبة يسألني
بصوته الخشن: تسمح إيجار الأوضتين؟

- ليه إيجار أوضتين يا حج سيد؟
- الأوضتين الي أنت مأجرهم من ساعة ما سكنت هنا يا سعد، هو كُلّ مرّة نفس الموال؟
- بالراحة بس يا حج، فهمني، أنا لم أؤجر منك إلّا غرفة واحدة، هذه، وهذا هو بابها!
- أومال الأوضة الي هناك دي تبع مين؟
- إيه يا حج سيد، سلامة الذاكرة، تبع سعد عمران تعرفت عليه بالأمس!
- سعد عمران، أومال أنت مين يا سعد؟ أنت هتجنني يا بني؟! مش إنت اسمك سعد عمران ولا غيرته، مش كفاية صوت العود الي قارفنا بيه طول الليل!
- في إيه يا جماعة؟ مالك يا أستاذ سعد؟ خير يا حج سيد صوتكم عالي؟
- أستاذ خالد، انجدني منه، نفس الموال بتاع كُلّ مرّة!
- مش عايز تدفع حساب الأوضتين برده يا سعد؟
- أوضتين، إنت كمان يا أستاذ خالد!

- يا بني لازم تتعالج، أنت بقيت تكلم نفسك طوال الليل بين الغرفتين، لا حول الله.

- بكلم نفسي كمان!

- الرحمة من عندك يا رب، صبرني!

- هدي أعصابك يا حاج سيد، هو سعد هيفتكر كمان شوية، مش أول مرّة تحصل.

كُلّ هذا يحدث أمام عيني وأنا في ذهول تام، أكاد يُغمى عليّ من وقع الصدمة، انتابتنى حالة من الصمت، وعدم الإحساس بما يجري، حتى غاب صوتهم تدريجيّاً عني ووقعت على ظهري.

بعد فترة وجدتنى مسنوداً على ظهر الكنبه، وبجوارى الاثنان.

- الحمد لله، ها قد فاق.

عيد الميلاد السابع عشر

البنْتُ التي تلعبُ أمامي كُلَّ ليلةٍ، حافية القدمين، مُطلقةً شعرها القصير، يعبث به الهواء كيفما يشاء، أصبحت اليوم شابة، قد اشتد عودها، وطال شعرها، وبزغ لها نهْدان أشبه بحبَّتَي برتقال لم تنضجا بعد.

مضت أيام كثيرة، ما زالت تلعب أمامي، لكن مع صبي صغير، يشبهها، له عينها العسلية، وأنفها القصير، وشقاوته وهي طفلة، تناديه بأحمد، وتمسكه من خصلات شعره، إذا أغضب الصبية حوله، فينزوي في ركن ويبدأ في الصراخ، وهي كالبلهاء تُسارع لإرضائه، فيرضى ويبدأ بفرك عينيه، فتصبح همراء كحبة بندورة.

لها من القطط ما لا يُعد، وكلاب ضاله انتشلتها من الشارع، بيتها في الطابق الثاني من العمارة الأولى في هذا الشارع، قد عرفه الناس باسم ملجأ القطط والكلاب، لصاحبه المجنونة سعاد، وما هي بمجنونة بل هم، فقد تحوّل قلبها إلى مركب كبير يسع الكل فيه، إنساناً كان أو حيواناً ضالاً.

«سعيدة أنا هكذا، بين قططي وكلابي، ومعَي أحمد يهون عليّ ويحرسني بسنواته الخمس».

والد أحمد رحل منذ مولده، لم يستطع أن يجد نفسه أباً وعليه مسؤوليات وواجبات، لن يكون مستقبلي هكذا، قال وغادرها، بعدها بأيام وجدت ورقة من مأذون شرعي يبلغها

بأن الطلاق تمّ، احتفظت بالولد، ونست زوجها إلى غير رجعة .

«نذل، سافل، حقير، مستودع قاذورات، نعجة، وهارب»، تحدث نفسها بهذا كلما أصابها يأس. أحمد الآن في العاشرة، خمس سنوات مرت دون أن تشعر، ما زالت تحتفظ بألقها، وشغفها بالقراءة، ولم تمتلك يوماً الجرأة للكتابة. سبعة عشر عاماً عمر ولدها، وخمسة وثلاثون هو عمرها، أمسكت بأجندة مرسوم عليها زهور عباد الشمس، وظهرها أسود، فتحت الصفحة الأولى ثم الثانية حتى وصلت للسابعة عشرة، وفي منتصف الصفحة كتبت بخط عريض جميل، مذكراتي:

«أحمد اليوم يكمل عامه السابع عشر، ولحسن الحظ أن يوم مولدي هو يوم مولده، أنا أصبحت كبيرة، عمري خمسة وثلاثون، لم يمسنى رجل من اليوم الذي جاء فيه ابني إلى الدنيا، تزوجت من حقير عديم المسؤولية، هرب مع أول صرخة لوليدته».

- أين عصير البرتقال يا ماما، لا أجده في الثلاجة؟

- في الصالة بجوار التلفاز.

«أحمد يكره الققط، لكنها ستعلمه الرحمة، رغم هذه المدة التي قضاها مع الققط، إلا أنه لم يرقّ، ربما قريباً تجتاحه الرغبة في الحب».

- ماذا تكتبين؟

- لا شيء، عندك درس، يجب أن تسرع

- أصبحت أماً مصرية بامتياز.

- أنا بالفعل هكذا.

- تعليقات مقتضبة.

- وأنت تكبر بسرعة.

«بالفعل أحمد يكبر بسرعة، وهذا يجعلني قلقة، وأحياناً متوترة، وخائفة، مع أنه يجب أن يعطيني نوعاً من الأمان والثقة، منذ أن غادر والده، هذا النعجة، وفرّ كما تفر الفئران من السفينة، وأنا أحمل داخلي غضباً شديداً ناحية جنسه، والناس أجمعين، لم ينصفني أحد، حتى القانون حينما لجأت له، رمى لي بضع ورقات نقدية من فئة المئة كل شهر، وضاعت نفقتي ومهري، بدهاء من محاميهِ.

«كل يوم أصطدم بشيء جديد، مرّة بشجرة، ومرّة بأفكار بالية، ومرّة بألسنة لا ترحم من لا ظهر لها في هذه الحياة. أنت لا تستطيع أن تحاسبهم على ما في نياتهم، مع أنها خبيثة والكل يعرف هذا، رحماك يا رب من التناقض الواقعين فيه.

«دائماً أحصل على بداية سعيدة، هكذا كل البدايات، لكن هل لي بنهاية سعيدة، على الأقل لولدي، لاي؟! أود أن أتكى عليه، كما اتكأ عليّ، وأحتضنه كما كنت أفعل في صغره.

«لم أعد أصلي، أصبحت هالكة، في السابق كنت أتردد عليها متوترة خائفة، الآن لا تمس جبهتي الأرضية. السبب مني، أعترف، أنا بحاجة لمن يعيد لي إيماني الضائع، وجود أحمد يشجعني للعودة، أحتاج فقط أن أخذ الخطوة.

«أجد أناساً كثيراً في صحوي ونومي، قد وضعوا مائدة أمامي، وتركوني حتى الشبع، وشهوات غير متاحة في الحياة، فأعترف منها ما أشاء، دون أن أصبح خاطئة، ودلو كبير وُضع به ماء، فأنزل بجسدي النحيل فيه، كأني أعمد، مرّة واثنين، لا أحد يلتفت، ولا أجد حتى من ينقذني، حتى آمل فأجدني على السرير، وقد ابتلت الملاءات، وعلى جبهتي عرق غزير، بعد فترة أكتشف أنه خمر، طعمه لذيذ، لم أكن من قبل قد احتسيتها. كنت أحلم، فلا توجد هنا عاصية يتركها الناس في حال سبيلها، أقلها يتم التشنيع بها.

كانت الساعة الرابعة، قريباً سيعود أحمد من درسه، أقبلت على فعل الكتابة بجرأة قوية: «أنا فخورة بنفسي حتى وإن كان ما أكتبه جميلاً أو قبيحاً، المهم أنني كتبت، حتى امتلأت الصفحات، وأزيع من صدري بعضاً من الزحمة».

صفحة أخيرة يجب أن أكملها، الصفحة الخامسة والثلاثين.

«عليّ أن أكون صادقة وإيجابية، لكنني لا أستطيع العيش في هذه الخدعة كثيراً المسماة الحياة! لا أعرف الهرب، لم أعتده،

لكن في النهاية كل هذا دون معنى، دون فائدة، فكيف لي بالاستمرار في هذا الوجود، وأنا أستنزف كلياً كل يوم؟ دائماً ما أجد طريقة للمرور من هذا الثقب الضيق جداً، هل فعلاً أنا راغبة في المغادرة؟ أن يختفي نجمي المضاء، ومعه تختفي الشمس، والأرض تذهب دون رجعة، إلى ظلمة أبدية! آه يا رب، ما الذي جرفني إلى كل هذا الإحباط، أشعر أنني حبة رمل في صحراء شاسعة، لا أحد يستطيع التعرف عليها، أو يتشهلها من بين هذا الكم الهائل من النشابه. عليّ إلهاء نفسي، حتى الصمت لا أحبذه، أحمد هو إلهائي عن كل هذا، حتى لا أقع فريسة، وأغادره، فأخسره، يا إلهي كل شيء يهون إلا خسارة ولدي.

«ها قد عاد، الغريبة أنه لم يسألني طوال تلك المدة، عمن يكون أبوه، ولا لمح لي في مرة أنه يود رؤيته، هو يعلم الاسم الذي في شهادة الميلاد، لكن لم يلتق به».

قامت من مكانها وأخرجت علبة قديمة من الأرابيسك، أعطتها لها أمها قبل الوفاة، أخرجت شهادة ميلاد الابن، ونادت عليه: أحمد، تعال إلى هنا، أنا في الغرفة المجاورة.

- نعم يا ماما.

أصبح طويلاً، واشتد جسده، لأول وهلة تلاحظ هذا!

نظرت في عينيه، وكانتا صافيتين، تماماً كعينها.

- هذه شهادة ميلادك.

- أعلم، لكن ما الداعي لإخراجها.

- اقرأ اسمك بالكامل: أحمد جبريل النجاري.. هل تعرف من هو؟

- نعم، مجرد الاسم فقط، لم أسأل ولم تسألين؟ ماذا يدور هنا، أنا لا أفهم شيئاً.

- حسناً، والدك هذا، غادرني بعد أن أتيت أنت للعالم، لم يحتمل فكرة أن يصبح أباً، هو حقير أعلم، اعذرني إن شتمته أُمّاك.

- لا يهم، فأنا لا أعرفه، أنا لا أعرف أحداً إلا أنت.

- لأجل هذا، أود أن تبحث عنه، أينما كان، لتفهم على الأقل لماذا فرّ فور وصولك، هذا عنوان محامي، بنسبة كبيرة لم يغيره، كان يبعث إليّ من خلاله بضع ورقات نقدية كل شهر من أجلك، هي في حساب بنكي باسمك، لم أمسسها، هي لك .

- ماما، لا تحلميني فوق طاقتي، أنا لا رغبة لي في كل هذا، أنا لا أود أن يشاركني فيك أحد، أنت فقط وأنا، كما كنا من قبل، أعلم أنني لا أعرف كيف أعبر عن مشاعري، لكن أنا أحبك جداً، لم أحبّ أحداً من قبل مثلك، أعلم تضحياتك

الكبيرة من أجلي، ليذهب والدي إلى الجحيم، أنتِ الأم والأب، والصديق بالنسبة لي. يبدو أنكِ تفتعين كل هذا، حتى لا تحتفلي بعيد ميلادي السابع عشر.

احتضنته، وكانت ترغب في هذا بشدة، من بعد العاشرة لم يلمس حضنها الدافئ، كبر الولد وأصبحت عجوزاً، هي من بحاجة إلى حضنه أكثر. أتت بتورته صغيرة، ووضعت فيها سبع عشرة شمعة، فأخرجهما، ووضع اثنين فقط، قائلاً: هذه لي، وهذه لك.

الْعَمَّ إِبْرَاهِيمَ وَنَعْنَاعَ السَّبِيلِ

يبعد عن قريتنا بثلاث قرى، تُدعى قريته بـ«السَّيْل». يُصلي الفجر ويركب حماره الأبيض متجهًا نحو قريتنا، يُحْمَلُ الحمار بالمتاع من النعناع والشبث والبقدونس والفجل والكُرَّات والكزبرة، مالذ وطاب من الأرض، قريتنا أول وجهته، يبدأ بشارعنا أوَّلًا.

يصيح عاليًا بصوته العذب الممتلئ بالنعيمات على بضاعته، في السابعة يكون قد وصل، ومن أجله تتهافت الأمهات لشراء احتياجاتهم منه.

لم أكن أعرف اسمه إلا عندما نادته جدتي بالعمِّ إبراهيم، أول مرَّة رأيته فيها كان شاحب الوجه، هزيل الجسم، صفراء أسنانه من فرط الشاي والسجائر، والسواد يملأ أسفل عينه نتيجة مرضه. كنت أخاف النظر إليه، أظلم أفكر لم هو هكذا؟ هل هناك أسرة تهتم به؟ هل له أطفال أو زوجة؟ وعند السؤال عليه لم أكن أجِد إجابة ترضيني.

فجدتي تخبرني أنه قليل الكلام، ولا يعارض كثيرًا الزبائن في الأسعار، مما يجعل الزبائن يا ولدي تماطل معه في السعر، وهو ينزل على رغبتهم، مع أن أسعاره لا تتعدى النصف جنيه أو جنيهًا كاملاً، إلا أن الناس يا ولدي ينتظرون أي فرصة لممارسة القوة على الأقل منهم، تمامًا كما تفعل الدولة معهم.

الناس في غربة، إلا إن عم إبراهيم غربته أقوى ومثيرة
أيضاً، رجل لا تعرف عنه شيئاً، كل ما تعرفه اسمه ووظيفته،
تخشى النظر في وجهه بسبب المرض الذي أهلكه، رغم
ذلك تشفق عليه، تتمنى أن يكون حاله أفضل، بل يصل
الأمربك أن تحبه، وتنتظر مجيئه!

انقطع عم إبراهيم عن المجيء للقرية والشارع ثلاثة
أشهر.

الأحاديث عن هذا الرجل العجوز الذي يأتي كل يوم
للقرية محملاً ببضاعته على حمار أبيض منذ ما يقرب
العشرة أعوام ويشترى منه جميع الناس النعناع والفجل،
وفجأة ينقطع عنهم! أصبح الحديث الدائر في كل بيت،
والموضوع الأهم، إذ لم يكن يشغل الشارع أحاديث ذات
أهمية كبيرة، كيف وهو لم يُخلف يوماً لم يأت فيه.

لا أعرف ما الذي جعلني فجر هذا اليوم
مستيقظاً يأبى النوم أن يأتيني، التقطت حينها
كتاباً من المكتبة وجلست في البلكونه أطلعه على
ضوء شروق الشمس الذي يأتي من بعيد متردداً.

الساعة السابعة الآن ولم أملّ من القراءة! الشمس
أصبحت تغمر المكان، الشارع فارغ إلا من أصوات

العصافير، أغلقت الكتاب فجأة وروحت أتجول بعيني في
الشارع من أوله لآخره حتى تسمرت عيني على المنزلة!
نعم هو العم إبراهيم راكباً حماره، يصيح على بضاعته
بصوتٍ عذب كله نغم:

«الى عايز الجرجير، شبت وبقدونس وفجل، نعناع أخضر».

حتى توقف أسفل البلكونة وبخفة شديدة قفز من
على حماره وأخرج كُوزاً ممتلئاً بالماء وراح يرش به عيدان
النعناع وحزم الفجل والجرجير.

أنا غير مدركٍ لما أراه الآن، الجسد الهزيل صار بنياناً
قوياً، والوجه الشاحب بات مُكتنزاً تقفزُ منه الحُمرة، وتحت
العين اختفى السواد، الحركة سريعة، اللسان لا يكف عن
الحمد والتسبيح، وابتسامة نُصرة تعم الوجه.

أسمع صوت هرجلة وتقلبات في الأُسرة، همهمات
وحيرة، وأسئلة كثيرة.

هل هو أم أحد غيره؟

بعد دقيقة كانت الجدة في الشارع تُسارع الخطى تستقبله
فرحةً غير مصدقة.

- ليك وحشة يا عم إبراهيم، فينك يا راجل؟

- أنا أهو يا ست الكل .

- غيبة طويلة!

- غصب عني، المرض تملك مني .

- مرض إيه يا راجل؟ ما وشك زي البدر أهو!

- ده فضل ربنا عليّ، بعد شهر رقدة في السرير لا حول ولا قوة، وأنتِ عارفه لايّ عيل ولا تيّل، نصحوني ولاد الحلال أروح النوبة!

- النوبة! تعمل إيه؟

- شيخ قبيلة نوبية كان في مسجد القرية، لما شاف حالتي الي لا تسر عدو ولا حبيب، صمم يعالجني هناك في النوبة. استقبلني في بيته، من الفجر بعد أن نصلي ونفطر، نمشي لآخر جبل في قريته، وهناك في الرمل يقوم بدفني وينثر عليّ الرمل، حرارته لا تُطاق كأنني دخلت جهنم، ثم بعد وقت محدد يعلمه هو ويقوم بحسابه يخرجني من الرمل، ونعود مرّة أخرى لبيته الواقع في أول القرية. البيوت تشبه بعضها، القلوب صافية، والوجوه التي تشاهدها في الذهاب والعودة لا تعبس في وجهك أبدًا، بل تجدها تبسم عن طيب خاطر تضحك بكل ود ومحبة، لا تُكنّ لك أي ضغينة. زين لم يكن إلّا إنسانًا عاديًا، بل أقل من العادي،

رغم هذا أهل قريته ينصبونه كبيرهم ويلجأون إليه في مشاكلهم، يجدون في بيته الراحة والألفة، مُقيمون عنده، باب بيته الخشبي ذو اللون الأخضر المرصع بقبضة نحاسية لا يُغلق مهما كان، زين وهب نفسه لأهله. هو الأب لهم، رغم أنه لم يتزوج، إلا أن كل من في القرية من أولاد وبنات هم أبناء له. لا يُغلق في وجهه باب، كل الأبواب مفتوحة بإذن الله، هكذا كان يذكرني دائماً، يا إبراهيم توكل على الله فالأبواب مفتوحة بإذنه. كل يوم نكرر هذا المشوار وعملية الدفن هذه ونثر الرمال ونعود ثانية. بعد شهر فقط وجدت نفسي يا حاجة سليم البدن، وشهية مفتوحة لا تقول لطعام «لا» مهما كان لونه. أود أن أصارع الأسود بما حل بي من قوة، بعد يومين راحة أرغمني على الجري بعد الفجر إلى الجبل لمدة أسبوع كامل. لم أجد في ذلك تعباً بل وجدت راحة. في الأسبوعين التاليين كان يصف لي زيوتاً كثيرة، وأقوم بدهان الظهر والساق والكعبين والذراعين. في الأسبوع الأخير كنت أرمح مثل الحصان في القرية، الكل يعرفني، يشاورون عليّ ويقولون: «أتى مع الشيخ قعيداً، الآن تراه كالنحلة لا يهدأ».

- بركاتك يا شيخ، إلا اسمه إيه يا عم إبراهيم؟

- اسمه الشيخ زين.

- أمانة عليك يا ولدي تكلمه أو توصلني بيه، رجلي
ضعفت، العظم نخر السوس فيه.

- إِنْتِ تْؤْمري يا حاجة.

كل الناس في الشارع خرجوا، الأمهات والبنات، حتى
الرجال تركوا النوم، كلهم يودون السلام على العَمِّ
إبراهيم، وأنا واقف في البلكونة أشاهدهم وأشاهده، كأن
زين هذا هدية من الله أُرسلت له فاغتمها ولم يبارحها
حتى أتم الله شفاءه.

ضجة عارمة في الشارع، تحوّل المكان إلى سوق كبير
البائع الوحيد فيه العَمِّ إبراهيم. هذا يصيح من بعيد
أعطني حزمة سبانخ وملوخية! آخر بقدونس وكزبرة،
وهذا يطلب نعناع السّيل من العَمِّ إبراهيم. الكلّ يتبارى
من أجل الشراء منه، لا يجادلون في السعر، يدفعون كما
يقول بل بعضهم يدفع بزيادة.

جاءت من الزحمة هذه الدعوة: «الله يكرم الشيخ زين
الي ما شفته عنينا، وجالك نجدة».

الجدة تخبر عَمِّ إبراهيم أن غداه اليوم عليها وفي بيتها،
ييتسم لها لكن يرفض بأدب والخنجل يعلو وجهه.

- إِنْتِ حر، دي ملوخية، وهتحبس بشاي بنعناع بعدها.

- دايماً عامر يا ست الكل، كلك كرم وأصل.
- إنت وعدتني هتكلم الشيخ زين، أو توصلنى بيه.
- وعد الحر دين عليه! راح أزوره مرّة ثانية هو شيخي
وأنا من مُريديه، له عليّ حق، وزيارته واجبة.
حين غادر العمّ إبراهيم الشارع لم يكن بقي من همله
شيء، بضاعته كلها مباعه.
اتجه نحو المنزل بحماره، يمتلئ صدره بالرضى، خفيفاً
مرحاً لا تغادره الابتسامه، ومن بعيد يلوح بيده.
لم يتبقّ إلا الغبار الذي خلفه الحمار وراءه، بعد دقائق
قليلة كانت الجدة تنادي عليّ بصوت عالٍ كي أنزل
للفطور والأهم لأشرب الشاي بنعناع السبيل.

رُوحِي مَقْبَرَةٌ

علقتُ خبر موتي أمامي على الحائط، كل صباح ومساء كنت ألقى نظرة عليه، لأطمئن أن ورقة الجرنال التي كُتِبَ فيها الخبر بخط كبير، وصفحة أولى، بعيداً عن الوفيات، ما زالت سليمة، وتستطيع أن تقاوم معي الأيام القادمة.

دُفنت على قيد الحياة، لم يكن أحد يعرفني، لكن بعد هذا الخبر الذي كان مجرد تأبين، من شخص مجهول، يحكي قصة عن طريقة وفاتي، ويقوم بمواساتي وأنا في القبر بكلمات رقيقة، أحياناً أجد فيها بعض الأخطاء الإملائية، جعلني أحد الشخصيات العامة، ويتم الحديث عنها بعد الوفاة، حتى وإن كانت وفاة غير حقيقية.

أنا أول مَنْ يشاهد خبر وفاته في الجورنال، وقبل أن يتحدث عنه الناس بصيغة الماضي، رغم أنني حي، أكل وأشرب، وأنام، وأقضي حاجتي، وأسير على رجلي في الشوارع أمام الكل، لكن هم مُصرون على أنني مت، وتم دفني أيضاً في مقابر الجبل الأحمر، حارة ألف، مقبرة رقم ثمانية.

زهر مالك الحسن، وفاته غامضة، وُجِدَت الجثة بالقرب من منزله، ثلاث طعنات، طعنة في البطن، وواحدة في القلب، وأخرى أسفله.

شاب لم يتعدَّ سنه الثلاثين، مهندس ديكور، استقال من وظيفته، أكثر من سنة، وحيداً يعيش في شقة، ورثها من الأب،

ليس لديه أهل أو أقارب، وجد في شقته بالدور الثاني من عمارة ألف، مجاورة أولى، مكتبة كبيرة من الكتب، بالإضافة إلى لوحات رسم مختلفة، وبعض زجاجات بيرة، وقطعة من مخدر الحشيش ملفوفة بعناية في ورقة زاهية، عُثر عليها في كتاب يتحدث عن حسن الصَّبَّاح وجماعته، وملابس كثيرة سوداء في خزانة عتيقة، وبخور، وعدد كبير من الجوارب المثقوبة.

حين أقرأ هذا الكلام المكتوب أسفل الخبر، أجدني مندهشاً، وتمتلكني الحيرة، فأنا لا أستطيع أن أكذب ما قاله، لديّ الآن في هذه اللحظة المكتبة، وزجاجات البيرة موجودة في كل ركن من الشقة، والملابس السوداء، كانت من تصميمي، ولم أتمكن من بيعها رفضتها الشركة، والبخور كان تغطية على الحشيش، الذي لا أتذكر أين ذهبت آخر قطعة منه، لكن بعد قراءة المقال عادت الذاكرة.

قمت من مكاني، ووقفت أمام المكتبة، واضعاً ذراعي على صدري، أبحث عن كتاب حسن الصَّبَّاح لمدة ساعة، قلبت الشقة، فلم أجده، المقال ذكر أن الكتاب كان في المكتبة، داخله قطعة الحشيش ملفوفة في ورقة زاهية، الآن لا أجد الكتاب، ولا القطعة!

جلست على الكنب، وقررت ترك البحث ليوم آخر، ربما أعثر عليه، منذ أن قرأت الخبر المشؤوم، وأنا لا أقرأ آخر كتاب فتحته، ووصلت لنصفه، كان كتاب «عن الحشيش»

لفالتر بنيامين، التقطه من على المنضدة، وعادت القراءة فيه، الصفحات مثنية، وبعضها مرتفع، كأنها اتخذت شكل القبة، هزرتة، فوقعت على الأرض قطعة الحشيش كانت داخله بحالتها، ملفوفة في نفس الورقة الزاهية، علامات الأسنان عليها بارزة.

أنا أتعاطى الحشيش، تحديداً من سنة، كنت قررت قراءة الكتاب، حتى أعرف كيف كان شعور فالتر حين يقرر الكتابة تحت تأثير الحشيش، لم أكن أرغب في معرفة علمية، كل ما أردته خوض نفس التجربة، الشعور أني فكرة محلقة وتائهة، شيء صعب الوصول إليه، كل تلك أحلام اليقظة، ربما مع الحشيش تصنع شيئاً جديداً، فريداً من نوعه، كأنها وصفة للخروج من مأزق الحياة دون ألم، أو تحمل كثير من الأسئلة التي لم يعد لها إجابة.

هذا أول خطأ يقع فيه كاتب الخبر الملعون، لم يكن كتاب حسن الصبّاح الذي به قطعة الحشيش، كان كتاباً عن الحشيش، أمر بديهي، لشخص يجعل للأمور صلة، يربط الكل في نقطة واحدة.

الجوارب المثقوبة، حقيقتها ظهرت بسرعة، كنت أرتدي جورباً مثقوباً، كلتا الفردتين من عند الرقبة. أما لوحات الرسم فجزء منها كان ديكور جديد للشقة، قمت بتصميمه، ولم يكن لديّ الرغبة لتنفيذه، الباقية كانت عبارة عن نساء

عارية، علاقتي الكثيرة والمتعددة كانت مادة غنية للرسم، كنت قبل الانتهاء من العلاقة، أكون قد انتهيت من رسم اللوحة.

إلا واحدة، لم تكن مكتملة، مجرد رسم تخطيطي، لا أذكر ملامحها، عبارة عن رقبة طويلة، عينين، نهد مكتنز، والذراع الأيمن منفصل عن الجسد، مرسوم بعيداً لوحده، وفي الأسفل مكتوب بخط صغير، «الفراديس المصطنعة».

الحشيش كان بوابة لعالم أكثر رحابة، وراحة، الدخول فيه كان صدفة، والخروج منه، بكل تأكيد، لن يكون بسهولة.

حين أشرب، أشعر بكل شيء، السكون والحركة، أشعر بدقات قلبي السريعة والعنيفة، والكلمات لا تنتظم على الورقة، هي ترتفع، تنتظم في الهواء، على مسافة بعيدة، وكافية، عن الأرض، مرتبة، وأستطيع أن أمد يدي، محرّكاً كلمة مكان أخرى، دون شطب أو تعديل، أشعر بالأفكار المخنوقة، تتحرر وتنفذ للهواء، يلتف حولها الدخان، وربما تُخفي حلقة من الدخان كلمة، ودون عناء أعيد كتابة الجملة.

بعد عدد من سجائر الحشيش، نمتُ في مكاني على الكنب، في الصباح وجدت بجواري ورقة مكتوب فيها بخط مائل كلام كثير غير مفهوم، حاولت بكل قوة فك شفرته، أخذ مني نصف النهار، كأني في مسابقة للكلمات المتقاطعة.

لم يكن مرتبطاً ما وصلت إليه، لكن ما فهمته أنها كانت كتابة تحت تأثير الحشيش، عبارة عن هلوسة، بدأت أقرأ مرّة ثانية:

«اسمي زهر مالك الحسن، مهندس، ثلاثون سنة، أخبأ الحشيش في الكتب، وأجد رابطاً بينهم، لا أرتدي إلا الجوارب المثقوبة، حين أشتري جوارب جديدة أقوم بثقبها من عند الرقبة، أمشي وفي جيوبي كمية من البخور، فقط أحب الرائحة!

استقلت من سنة، بعدما ضربت رئيس الشركة، كانت عبارة عن قعدة الحشيش فيها في كل مكان، ومع الهلوسة، صرت أتفوه بكل عيب فيه، سخرت منه، وتكلمت عن علاقتي بزوجته، حتى مديده، وطالت يدي كذلك، فكانت النتيجة كسوراً مضاعفة، لم يقدم في أي بلاغ، فقط لم أذهب للشركة مرّة أخرى.

الآن أتذكر ماذا تعني الفراديس المصطنعة، غير ما يعنيه بُودليير!^(١).

في نهاية الورقة وجدت ملحوظة:

لا تنسَ قراءة القصة!

أي قصة هذه؟

١ - بُودليير (١٨٢١-١٨٦٧) شاعر فرنسي مشهور.

فتشت جوارى، لم أجد شيئاً، كذلك المنضدة فارغة، المكتبة ممتلئة بألف قصة، أي مجنون هذا، تذكرت أنى صاحب الكتابة.

هنا لا يوجد شيء في مكانه، من التعب ملت برأسي للأسفل، واضعاً يدي عليها، طرف كتاب كان يبرز من تحت الكنبه، شدته، لم يكن إلا غلاف أبيض، فتحته، بخط سيئ كتب بقلم جاف، قصة!

تأليف حشاشٍ

الصفحة الثانية مكتوب فيها

رُوحِي مَقْبَرَةٌ، أَسْكُنُ فِيهَا وَأَطُوفُ،^(٢)

كَرَاهِبٍ فَاسِدٍ، مُنْذُ الْأَزَلِ؛

وَلَا شَيْءٌ يُزَيِّنُ جُدرانَ هَذَا الدَّيْرِ البَشْعِ.

الصفحة الثالثة وجدتُ خبر وفاتي مكتوباً بخط يدي، وتحتة صورة ضوئية للخبر، لم تكن إلا عبارة عن نص مكتوب على آلة الطباعة، بعد أن تأكدت من ذلك للمرة الألف، ذهبتُ إلى الصورة التي علقته على الحائط، أنزلتها، وخلعتها من الإطار، بعد المطابقة، تبين أنها نسخة من تلك الموجودة في الصفحة.

٢ - الأعمال الشعرية الكاملة - بُودلير - ترجمة: رفعت سلام.

الصفحة الرابعة كانت فارغة، وكذلك الخامسة، إلى أن وصلت إلى الثلاثين، كان عبارة عن رسم هندسي لمقابر الجبل الأحمر، عُلم فيه على حارة ألف، مقبرة رقم ثمانية، الصفحات التالية كانت فارغة، حتى وصلت للصفحة قبل الأخيرة، وجدت مكتوباً فيها: أردت التجربة، فما كان مني إلا أن اخترعت قصة، بدأتها بخبر موتي، وأنا على قيد الحياة، واسترسلتُ في رسم الشخصية، حتى دخنت الحشيش، وجدتني، أطور الأمر، إلى أن أصبح تمامًا مثل أحلام اليقظة.

أنا ميت حي، أدخن الحشيش بشراهة، وأكتب عن أشياء غير موجودة.



سمكةٌ في حَجم ورقة الخس

سمكة في حَجم ورقة الخس، رزقي هذا اليوم!

التصقت بالشبكة ولم أعرها نظرة، الوحيدة التي أعطتني أهمية، فأنا صيادٌ منبوذ لا من البشر فقط، بل من السمك أيضًا.

زوجتي التعيسة الممتلئة صاحبة الأثداء والمؤخرة الكبيرتين، طوال اليوم لا تفعل إلا التغني بموال شأنه أن يُنزل عليّ كل آيات السخط والعجز.

منعتني بالأمس من أداء الواجب المعهود كل خميس، ابتعدت عنها، عن أنفاسها التتنة بالبصل والثوم.

في السابعة حملت الشبك وإلى النهر، أتمنى ألا أعود مُحملًا بالخيبة، قد كرهتُ سماع ذاك الموال من تلك المرأة.

انقضت ساعة يتبعها ساعة، إلى أن صار الغروب قريبًا.

أسمع بالقرب من أذني مؤّلاً:

ساعة وتغيب الشمس وساعة ويحيي الليل

وينراد حيل ودمع ومنين أجيب الحيل

لا فائدة من كل هذا، أنا الصياد المنبوذ على هذا النهر وفي كل نهر، شددت الشبكة ووجدتها، لكن لم أعرها نظرة.

في البيت وبعد أن ارتميت فاقد الحيلة والعزيمة، صاحت حتى اهتزت الجدران:

- هو ذا الزاد يا آخرة صبري؟ شكلها ليلة قرديجي. ودي
هنعمل بيها إيه؟

- دي!

- خرس تليه؟

- أصل...

- بلا أصل بلا فصل، انطق يا راجل؟

- دي للزينة يا فتحة!

- زينة!

- آه، زينة، مبتتش أكل سمك يا فتحة.

ليل قابلة

كان ليل، وصوت وقع الأقدام تداخل مع صوت القطار،
في البعيد غرابٌ ينعق، قريباً من الساحل بنتٌ في التاسعة
تعزف على الكمان، كانت السيمفونية السابعة.

النجوم تراصت في شكل دائرة، الموج يزداد صوته، نيرانٌ
أعدها للتدفئة، لم يجلس بجانبه إلا الكمان وصاحبته.

بدأ يغني، صوته كان سيئاً، رغم هذا أكمل الغناء!

لم ينقطع، الموسيقى مستمرة، النجوم ما زالت في الدائرة،
والقطار غادر المنطقة، وتداخل مع وقع الموسيقى صوت نذير
شؤم!

كان قد تجرّد من كل ملابسه فور أن غادرت البنت صاحبة
الكمان، جلس عارياً أمام النار، لم يكن يصلي، ولا كان يتأمل
النار!

جامد، يرتعش بين لحظة وأخرى، عينه كانت صافية جدًا
بلونها الزيتي هذا، لن ترى النار فيها رغم شدتها، فقط فراغ!
كرة شعر فوق رأسه، وذقن خفيفة، ولسان لا يتوانى عن
إطلاق اللعنات.

أمسك ببنطاله وأخرج منه قلم رصاص وورقة، انتابه
الصمت للحظات معدودة، ثم بدأ بالكتابة.

عزيزي سمرة،

أنا منير، تركت المنزل صباحًا، هائم في شوارع المدينة، حتى
اهتديت للساحل، من حسن حظي أنني وجدت موسيقى
الكان المحببة إليّ تُعزف، وعجبًا من مَنْ؟

بنت في التاسعة من عمرها، تعزف السيمفونية السابعة
ليتهوفن، اتخذت من البحر والساحل مسرحًا وأوركسترا لها،
لم أجد في عزفها إلا الراحة، عزفها شبيه بعزفك حين كُنْتُ
تعزفين قديمًا، وكالتلميذ المأخوذ بمُعلمته جلست أمامها،
وأكملت هي العزف، لم ألتفت للبرد إلا بعد وقتٍ طويل
لم أستطع فيه تحريك أرجلي، قمت وأحضرت بعض فروع
الشجر الملقاة على الساحل، وبآخر عود ثقاب لديّ أشعلتُ
نارًا للتدفئة، كنت أتمنى أن أشعل به سيجارة، لكن للأسف لم
يعد لديّ نقود لشراء تذكرة للحافلة، أو حبة فاكهة!

سئمت من كوني فاشلاً، ومن تكرار أبيك هذه الكلمة، لا
ذنب لي أنني لا أجد وظيفة حتى الآن يا سمرة.

أفتقد تلك الأيام ونحن صغار، حين كنا نلعب في الشارع
لنصف الليل ولا نمل، حتى تناديننا أمك تاركين كل شيء
ونختبئ في حضانها، كنت حالة شاذة لأولاد الحارة، طفل
مثلهم لكن دون أم وأب، لا يملك إلا نفسه، وهذه أشك
فيها .

تذكرين اسم والدتك؟

كم كنت أعشق هذا الاسم «قابلة»!

كان بالنسبة لي أغنية محبة أرددها، في كل لحظة تعيسة كانت
أو سعيدة.

الأولاد في الشارع والجيران كانوا يعتقدون أن هذا ليس
باسمها، إنما وظيفتها، هي لم تهتم بهم، المرة الوحيدة
التي التقي فيها الاسم بالوظيفة التي انطبعت عليه، يوم
ولادتي، وكانت هي القابلة، قابلتي أنا.

وبعد فترة أتت بكِ إلى الدنيا فتقابلنا، وصرنا لا نفترق.

إخوتك حمقى يا سمرة، ظنوا أن البعد أفضل وسيلة
لكلينا، كرهوا حبي لك، تربصوا بي في كل مكان ذهبْتُ إليه،
لكن لم تفلح الخطة التي وضعها لهم أبوك لإبعادي عنك وعن

أشجار البرتقال التي زرناها بأيدينا في حديقة قابلة.

لم يكن ذنبي أن مات أبي وأمي لا تزال في شهور حملها الأخيرة، ولا ذنبي يا سمرة أن ماتت هي بعد الولادة، ولم يكن ذنب قابلة أنها أرادت تربيتي!

آخرة مرّة قاهلي أبوك صريحة: لا زواج من سمرة، إنها غلطة من البداية منذ أن أصرت قابلة أن تكون فرداً من العائلة، اعتقدت أنك ستعتبر سمرة أختاً لك، محرمة عليك، لكنك اعتبرتها عشيقتك، فكان لزاماً عليك أن تغادر البيت، ولا آخر مرّة أقولها لك يا منير، غادر ولا تعد إلى هنا، انس قابلة وسمرة، الدنيا واسعة، اختر منها ما شئت، إلا سمرة.

أفكر كثيراً في الموت، في المغادرة دون إحداث أي جلبة، ليس جديداً يا سمرة أن أموت غريباً، كلنا نسير في هذا الطريق، منا من يبحث عنه برغبة شديدة، ومنا من يخاف منه ويتعد عمن يذكره.

أنا الآن أذكره بكل حرية، وأقبل يده الممدودة.

أتخلّى عن كلّ شيء إلا أنت يا سمرة، لكن لا سبيل للجمع بيننا في هذه الحياة.

لي أمنية واحدة أتمنى أن تحقّقها يا سمرة، أن تعود لي للعزف على الكمان مرّة أخرى، إلى أن نلتقي في حياة ثانية.

ملحوظة:

حاولت أن أجمع كُلَّ ما لديَّ من ثروة، لكنك تعرفين أنني لا أملك إلا شيئين: المكتبة والكمّان، هما لك يا سمرة.

أنهيت الكتابة، وطويت الورقة، ثم أتيت بحجر ووضعتَه فوق الورقة.

كنت لا أزال عاريًا، لا دفء يأتي إلّا من النار بالجوار، عاد الغراب ينعق، الآن تُعزف السيمفونية من جديد، ما زالت النجوم في الدائرة، دخلت البحر حتى وصلت المياه لأعلى الصدر، وصرت كأني أجلسُ على خشبة الموتى، بكل رضى أستسلم مُقبلاً اليد الممدودة.



مريض عَنبر رقم ستة

تركوا لي كثيرًا من أعواد الثَّقاب المبللة، بضع فراشاتٍ ملونة نفقت في برطمان زجاجي، علبة تبغ من حقبة ماضية، راديو قديمًا من محطتين، إحداهما لأغاني اللهجة الشرقية، والأخرى للغربية.

تطل الشرفة الأمامية على مساحة لا تتجاوز العشرة أمتار من الخضرة، بناية مكوَّنة من ستة طوابق، لي فيها الطابق الثاني.

«أنت العاطي يا عاطي»، بَوَّاب العمارة العمَّ علي بات مصاحبًا لهذه الجملة، حديثه الدائر بين اللحظة واللحظة. طبيب أمراض نفسية منذُ التخرج من خمس سنوات.

السبع سنوات التي قضيتها في الدراسة، كانت الجحيم متجسدًا في هيئة الأساتذة والكتب والأقسام المختلفة.

طبيب نفسي لا يستطيع الجيران إيقاظه في منتصف الليل من أجل حالة مستعصية، الميزة الوحيدة التي أتاحتها المهنة.

ليس لي عيادة ولا أحلم بها على الأقل الآن، راق لي العمل في المستشفيات رغم ما تسببه من ألم وكآبة، فالمرض النفسي أسرع انتقالًا من العضوي.

بعد فترة التخرج والإعداد لدرجة الماجستير، عملت مع رئيس القسم في عيادته، لم أتجاوز السنة، المرضى كانت أمراضهم تصيني بالضحك، بل أحياناً بالغثيان. تعطلت الرسالة لمدة قصيرة بسبب ترك العيادة، كان بحاجة لي لمساعدته، لكنني تخلّيت عنه، هربت بقدر المستطاع عن عالمه.

عندما قدمت الاستقالة، نظر إلى الورقة التي كُتبت بخط طفل في الابتدائية نظرة احتقار، ولبت صامتاً إلى أن خرج من فمه كلام كثير بالفرنسية، أعقبها كلام بلغة فرويدية أعشقها منذ أيام الجامعة، بعينه راح يتفحصني من الرأس إلى القدم، باشمئزاز قطع الورقة لنصفين متمماً: «مش وش نعمة». ابتسمت حتى بانّت الأسنان، وغادرت.

وجدت نفسي حراً، لا شيء يقيديني.

أنا حر، اللعنة على أمراضكم المضحكة.

من الغد هي مهمة واحدة التي تقع على عاتقي، معالجة المرضى الحقيقيين، من أثقلتهم الدنيا همّاً على هم، حتى وجد المرض النفسي سبيلاً إليهم.

«دخلت كلية الطب إليه، لم أنت حابب الأدب قوي كده، وبكتب ليل نهار، بدل ما ألاقيك ماسك سماعة ماسكلي كتاب؟!». «

الجملة الأخيرة التي قالها لي نائب رئيس القسم في سنة التخرج، لم ألتفت إليه، قد تعودت على هذا الكلام.

ليس ذنبي أن الأب والأم معًا قررا أن الابن الوحيد مجموعه الكبير في الثانوية أكبر من دخوله كلية الإعلام أو الآداب!

خسارة!

ماذا ستفيدك كلية الإعلام؟

بماذا ستفيدني كلية الطب؟

أنا ابني يدخل كلية الطب، هو المكان المناسب له.

كأنني عروسة ماريونت يحركونها بخيوط في أيديهم، ليس لي حق الاختيار، أو حتى القرار.

في السنة الأولى كنت أتلقي كثيرًا من المعلومات، أصبحت آلة تخزين عملاقة، ونهاية السنة يحين موعد التفريغ في ورقة.

من الحسنات التي أتاحتها دراسة الطب، هي حصولي على مصروف جيب يمكنني من شراء لوازم الدراسة، كنت أفضل الكتب الأدبية والروايات عن كتب الكلية، بات عندي مكتبة كبيرة، كتب ملقاة في كل ركن، وكتب الكلية رغم أن عددها كان كبيرًا بعض الشيء، إلا أنني وضعتهم أسفل المكتبة.

على هذه الحال سبع سنوات، والأهل لا يعلقون كثيرًا
ما دام يجتهد في مذاكرته، وسيتخرج لنا طبيب قلب كبير أو
جراح مخ وأعصاب.

عند اختياري للقسم سببتُ لهم صدمة أطاحت بكل
علاقة قوية بيني وبينهم.

- يا حبيبي هيفديك بإيه قسم الأمراض النفسية ده؟ راجع
نفسك، عشان خاطري وخاطر أبوك.

- ده اختياري ومش هتنازل عنه.

- متضيعيش كل اللي عملناه!

- سيبوني أختار مرة واحدة في حياتي.

حين علم والدي بأن القرار لا رجعة فيه، وقف أمام
الغرفة وقال: «من هذه اللحظة لا تخاطبني، مصاريفك مع
والدتك، لا تسأل عني، وإن مت لا تمش في جنازتي».

كان كلامه يوحى بغضب شديد، كأنني قمت بإحداث
شرح تسبب في انهيار معبده.

ذهبت للأعمام وللأخوال، لكن لا مفر، كُتب عليّ أن
أعيش دون الأب.

خلي مستشفى العباسية تنفعك، لا تأتيني مصابًا بالجنون
حينها .

أصبحت مثاراً للسخرية في العائلة، شخص منبوذ لا يقترب منه إلا أمه، تهتم به رغم ما أصابها من خيبة.

قبل التخرج كتبت مجموعة قصصية وأرسلتها إلى دار نشر، لحسن الحظ نُشرت المجموعة مجاًناً، وحصلت على مبلغ مادي ضمن عقد متفق عليه.

لم أعقد آمالاً كبيرة على أن يأتي أحد من الأهل، بيعت نسخ كثيرة من المجموعة، شكر فيها عدد من النقاد وتحفظ آخرون في الرأي، قبل نهاية حفل التوقيع لمحتة جالساً في نهاية القاعة يحدق فيّ، رأيت في عينه تلك النظرة الحانية، نظرة الأب الفخور بابنه.

«أبي!»، خرجت في الميكروفون قوية، مما سبب له ارتباكاً بعض الشيء، التفت الحاضرين نحوه، دعوته بأن يتقدم، عندما جلس بجواري قدمته للحضور: «لا أعرف ما ينبغي عليّ قوله، أنا هنا لقول كلمة واحدة»، نظر في عيني مباشرة، ورأيت الدموع على وشك السقوط: «أنا فخور بك»، قالها وغادر.

أنهيت اللقاء سريعاً، غادرت القاعة أبحث عنه في كل ركن، وجدته يبكي، رميت نفسي في حضنه، اكتمل الفرح بأن عدنا ثلاثة كما كُنّا في السابق.

بعد مرور الموقف، أتى لي بنسخة من المجموعة: «وقعها لي لو سمحت»، ابتسمت حتى ابتسم، ومن الناحية الأخرى ابتسمت أُمي.

«إلى أبي العزيز، مَنْ أفخر به في كل مكان، لم تكن في حاجة لتوقيعي، قد سبق ووقعت على كل النسخ بإهداء الكتاب إليك أنت ووالدي».

احتضنتهما، وبكيت كثيرًا.

- لم البكاء يا عزيزي؟ صار لي كاتب وطبيب في آن واحد.
لم ينقض على التخرج سنة كاملة حتى تُوفِّي أبي، وبعد ستين تُوفيت أُمي.

لم يبقَ إلَّا الكتب وكثيرٌ من أمراضٍ نفسية.

- طيارة يا دكتور!

- ما لها؟!

- بتطير.

- ما طبيعي تطير.

- بقت على الأرض، اتقص جناحها، فقدت قيمتها، مبقتش طيارة.

هزرت رأسي بالإيجاب، وغادرت العنبر في حسرة.

أزمة عصبية حوّلت المريض لفيلسوف كبير.

هنا ستشاهد القهر والفقر كيف يتلعون إنساناً، يبددون كلّ صلةٍ له بالعالم، ينسرق منه عقله كما ينسل الخيط، بطيئاً في غير عجلة من أمره، مخرجاً له لسانه بكلّ وقاحة.

المؤكد عندي الآن بعد ما قضيته من مدة تتجاوز الخمس سنوات، أن المرضى هنا ليسوا بمجانين، ولم يكونوا يوماً مجانين.

لنعكس الآية، العالم هو المجنون، لا نحن!

هذه هي الحقيقة، ومنها فلتتعامل معه على جنونه.

حرية، حرية!

- دكتور، مريض عنبر رقم ستة، أُصيب بحالة من الهيجان، من نصف الساعة وهو يهتف بهذه الجملة، لا ينقطع عن ترديدها.

ذهبت سريعاً نحو العنبر لأشاهد ماذا يحدث.

التمرجي وأنا أمام العنبر، المريض ما زال يهتف عالياً:
«حرية، حرية!».

- هل أحضر له حقنة مهدئة يا دكتور؟

- ها.... لا، لا تفعل، هو لا يحتاج لأي مهدئات، هو في أفضل حال الآن.

- كيف؟

- هو قد شعر بما يجب أن يشعر به أيُّ إنسان، أيُّ إنسان طبيعي .

- هل هتافه بهذا الشكل طبيعي؟!

- نعم.

- المرءُ حين يشعرُ بآدميته، بحريته، حينها فقط، هو إنسانٌ طبيعيٌّ جدًّا، ما دون ذلك ليس بطبيعي، بل هو ميت.

- أيها الطبيب، إنك وقفت أمام العنبر في وجه المريض، تشاهده وهو يهتفُ بكلماتٍ غريبة، يهتف وقد تملك منه الجنون، شاهدت هذا ووقفت ساكنًا لا تفعل شيئًا، لم تقدم له يد المساعدة، تخلّيت عن مهنتك، حين فعلت ذلك، ونبهك التمرجي، فرفضت، بل نهيته عن فعل أي شيء لتهدئة المريض، لإخراجه من حالة الجنون هذه. إنك مدان بجريمة، لا تقل عن الجناية! إن الطبيب حين لا يساعد مريضه، فقد أذنب ووجب عقابه.

اجتمعت الإدارة، وبعد أن استمعت إلى شهادة البعض، أقرت الآتي: من اليوم، أنت موقوف عن العمل.

- كان ينبغي عليك أن تمنعه من الهتاف!
- هل أُمْنَعُ إنسانًا شعر بآدميته.. بحريته، وأراد أن يستردها؟
- نعم، إنك لست بمحام، لا، ولا لست بقاضي عدلٍ،
ولا ذا منصبٍ رفيع في وطننا لتقرر أنه يحق له الهتاف. إنك لا شيء، فقط طيب، أي لا شيء!
- أنا إنسان يا حضرة الطبيب، هل هذا يكفي؟
- إنك في حاجة ماسة لتكمل هذه الكلمة بلقب يؤهلك أن تقرّر، وأن تفرض.
- هذا جنون، أنتم حثالة، حرام أن يُطلق عليكم بشر، أنتم بلا عقل، بلا ضمير، الأهم من ذلك وما أنا على يقينٍ منه، أنكم بلا قلب.
- المشاعر لا وجود لها في مثل هذا العالم!
- أنت مُحْطِئ، المشاعر أهم وأجل من أي شيء آخر، هي من تعرفنا على أي هيئة نحن.
- حتى ننتهي من التحقيق، والنتيجة معروفة من الآن لديك، فأنت في إجازة مفتوحة. نصيحة لك، عُدْ إلى كتبك مرّة ثانية، علّك قد تجد هذه الصورة الخيالية.
- على الأقل يا سيادة المدير، هو الحقيقة، ما ينبغي أن نكون عليه.

- لتفعل ما يطيب لك، انتهى الكلام.

هممتُ بالمغادرة، مشيت باتجاه حجرة المكتب، للملت
الكتب والأوراق، وَشَدَدْتُ البالطو الأبيض من على شماعته،
خرجت، ثم صرْتُ نحو الباب.

في الممر أثناء المغادرة، سمعتها تأتيني قوية مجلجلة.
نعم، لكن ليس بصوت واحد، بل بمئات الأصوات.
«حرية... حرية».

إعلانٌ عن قلبٍ وحيدٍ

إعلان عن قلب وحيد وجدته مُعلّقاً على بعض الجدران
في الشارع، عبارة عن ورقة بيضاء مكتوب في منتصفها:
«قلب وحيد» ورسمه لقلب منكسر، لم أجد توقيعاً، ولا أي
معلومة أو وسيلة تدلني على صاحب الإعلان.

التقطت الورقة، عائداً للمنزل أفكر كثيراً في شأنها!

أقول في سري: إن كان صاحب الإعلان لا يريد أن يعرفه
أحد أو يقابله، فلماذا علّق هذا الإعلان من الأساس؟

الشوارع ضيقة، النفوس كذلك، الناس تُصاب بالملل كثيراً
هذه الأيام، الناس بحاجة إلى الأمل، حتى هذا أصبح بالنسبة
لهم مجرد سراب.

الخوف من التجربة ونتيجتها جعل الناس أكثر توقفاً للعزلة!

يا الله كيف نشعر بكل هذا التناقض؟ ولم لا نحصل على
ترتيب بداخلنا؟ لم هذه العشوائية المسيطرة على الحياة؟

لديّ كنبه وحيدة في الصالة، كرسي هزاز من خشب الزان،
ولوحات كثيرة لفان جوخ على سبيل المثال: لوحة دكتور
غاشيه، وزهور عباد الشمس، وآخر لوحة رسمها قبل بضعة
أيام من إطلاق النار على نفسه المسماة «على عتبة الخلود»،

حين أنظر إلى رسومات فان جوخ أصبح قائلاً: كيف
استطاع أن يجمع كل هذا البؤس ويصوره، خصوصاً في لوحة

دكتور غاشيه وعتبة الخلود، لم يكن مجنوناً، ولا أنا مجنون، ولا حتى صاحب هذا الإعلان عن قلب وحيد.

هناك في البلكونة نبتة نعناع وحيدة أيضاً، زرعته من فترة قصيرة لتكفي الشاي، لكنها خابت ولم تظهر أي بادرة احترام لي، أحب النظر إلى النجوم، أود احتضان واحدة كطفلٍ يحتضن دُميته. مرات كثيرة أجد نفسي في بئر عميقة فارغة من الماء، وأصرخ طالباً النجدة، لكن بعد فترة أتعب منزوياً واضعاً رأسي بين أرجلي، ثم أرفعها فأجدني جالساً على السرير في البيت، وملابسي مُعفرة بالتراب، وعلى وجهي بقايا دموع. بعد أن انتزعت كُلَّ الأوراق المعلقة بالأمس على الجدران، وجدتُها مرةً ثانية معلقة كما هي، نفس الرسمة وتلك الجملة البائسة.

حين وصلت البيت كان معي عدد لا بأس به من تلك الإعلانات التي لا ينفك صاحبها أو صاحبتها في تعليقها على الجدران المؤدية لبيتي، بعد فترة من التأمل فيها قمت باحثاً عن إطارٍ مناسب لها، بالفعل وجدت إطاراً مرمياً في كرايب كثيرة في البلكونة الخلفية، وضعت الورقة في الإطار وعلقتها على الحائط بجوار لوحات فان جوخ.

بواب العمارة يبدو لي شخصاً متبهاً، سألتُه عن ماهية الإعلانات المعلقة، لكنه نظر لي في حالة ذهول، نعم أذكر

كيف كان حينها، كانت عيناه الصغيرتان غير المتناسبتين بالمرة مع وجهه تبرقان ويده تحبّط على اليد الأخرى قائلاً: أي إعلانات يا أستاذ؟

- الإعلانات المعلقة على الجدران ألا تراها؟

- لا توجد إعلانات يا حضرة، الجدران كلها نظيفة، لا يُسمح لأحد أن يعلق ورقة واحدة!

- «كيف؟ هل تقول إنك الآن لا ترى إعلاناً واحداً معلقاً»، وأشارتُ بيدي باتجاه الجدران.

نظرتُ، ثم اقترب من الجدران مثبتاً عينيه فيها متفحصاً، بل إنه كان يتشممها، قائلاً: «لا، ولا حتى أشتّم رائحة صمغ أو دهان!».

صامتاً لا أتحرك، أبحلق فيه، ويدي ما زالت مرفوعة في اتجاه الجدار.

يمرر يده النحيفة على وجهي: «يصح يا أستاذ، هل تراني؟ هل تسمعني إذن؟».

لم أرد، سقطت يدي من على الجدار وعيني من عليه، ومشيت. في الخلف جملة واحدة يرددها: «حرامٌ ما تفعله في نفسك، اذهب للطبيب، الجنون قريب!».

أصعد السلم درجة درجة، وأذني لا تفارقها تلك
الكلمة: «الجنون قريب».

وصلت إلى الشقة وارتمت على الكنبه الوحيدة في الصالة،
وأنا أردد: «قريب ها!»، وأضحك ضحكة عالية، قائلاً: «ليس
بقريب، لقد جاء، إنه هنا، هو معي، بل في رأسي».
أقوم من مكاني صارخاً في كل الأرجاء، أفعل مثل لوحة
الصرخة، وأقع على الأرضية.

أنا الآن أرى النجوم في سقف البيت، وأحتضن واحدة
منها مثل دمية، لم تكن السماء ذات لون أزرق، بل كانت حمراء
دموية، وملامح وجهي باتت غريبة.

في الصباح وجدتني على الفراش، بجانب حبات ليمون
وبرتقال، رأسي ثقيلة بشدة، قمت من مكاني وتمشيت إلى
الصالة، الباب مكسور، والسقف مرسوم فيه نجوم بقلم
رصاص!

طرقات خفيفة أعرف صاحبها جيداً، هو بواب العمارة
لا أحد غيره، سلّم وجلس على الكرسي الهزاز المصنوع من
خشب الزان، أخرج علبة السجائر، أشعل واحدة وأعطاني
إياها، ثم أشعل واحدة غيرها، تنفس قليلاً منها، وقال:
«ها، يبدو أنك اليوم أحسن بكثير من الأمس، حالتك كانت
فظيعة».

- ماذا تقصد بحالتي كانت فظيعة؟

- مرّة ثانية! يبدو أنك تنسى كثيرًا يا أستاذ، بالأمس سمعنا صوت ارتطام شيء كبير، وأنت تعرف أنني أعيش في الدور الأرضي، حين سمعت ذلك الصوت صعدت للأعلى بسرعة، كنت أعرف أن الصوت قد أتى من شقتك، طرقتُ على الباب بعنف، لكن لا فائدة، ناديت على الساكن بالدور الثاني، ونزل ثم كسرنا باب الشقة، وجدناك مرميًا على الأرض، وعينك بالسقف معلقة، حملناك لغرفة النوم، بعد فترة وجدناك تهذي ولم نفهم كلمة، صنعت لك زوجتي كمادات وناولناك بعض المسكنات، كانت الثالثة صباحًا حين استيقظت أنت ودخلت الحمام، حينها اطمئنتنا عليك، وتركناك.

حين سمعتُ ما قام بحكيه وتذكرته، أخذتُ أنفاسًا متتالية من السيجارة، حتى صارت عقبًا، فركته في راحة يدي.

بعد فترة من الصمت، شكرته وغادر.

أرجع برأسي للوراء، أرى السقف، أقول في سري: وما حكاية النجوم المرسومة على السقف بالقلم الرصاص هذه؟ كيف سقطت، وماذا كنت أفعل قبل أن أسقط، أنا لا أتذكر شيئًا، إلّا يدًا ناعمة تلمسُ جبهتي، وبعض الأصوات المختلطة.

ما زال الإعلان في الإطار، ما زال صاحبه يبحث عن قلب،
فهو وحيد!

أردت النوم، هكذا بكل بساطة، نمت على الكنب، وفي
الحلم وجدتني أمرّ على الجدران المؤدية للبيت، أعلق ورقة
بيضاء مكتوب في منتصفها إعلان عن قلب وحيد، ورسمه
لقلب منكسر، دون توقيع أو عنوان.

كوبري سيدة

كل يوم تعبر السكة الحديدية كأنه العبور الوحيد،
تخشى ألا تعود البيت على أقدامها، هذا هو حال سيدة
وحوال القرية جميعها.

اشتكت المحافظة وسلامها من أبناء القرية، من أجل بناء
كوبري للعبور للناحية الثانية دون أن يفقد أحدهم رجلاً أو
ذراعاً أو روحه كاملة.

آخر مرة وقفت فيها سيدة أمام مبنى المحافظة، راحت
تسب كل عامل فيها من الصغير حتى الكبير، بُح صوتها ولم
يعرها أحد أي انتباه، أو كلف نفسه قول كلمة تريح.

سيدة لا تتعب من السؤال والوقوف تحت الشمس تناجي
الساكنين في أعلى البناء ذي الكتلة الإسمنتية مثل رأس العاملين
به .

فقدت ابنتها الوحيدة ذات العشر سنوات حين مرّ
قطار لم يكن في الحسبان محولاً جسدها إلى قطع صغيرة على
قضبان السكة.

رحلت ابنتها وبقيت سيدة تذهب لمبنى المحافظة كل يوم
من بعد قضاء الأربعين، لكن بقي الحال كما هو عليه، لا
تستطيع الدخول أو التحدث لمسؤول، كل ما نجحت فيه
أن تصرخ وتستسمح كي يسمعها أحد.

وقفت سيدة أمام المبنى تصرخ قائلة: «حرام يا ناس قرية بأكملها على سكة القطر مفيهاش كوبري يعدي من عليه الناس؟».

- وأنتِ مالكِ أنتِ يا ست، ليك حد مات هناك؟!

- ليا عمري كله، بنتي الي مكملتش عشر سنين.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يرحمها، ما تطلبوا من النايب عن القرية يطلب من الحكومة تعمل كوبري.

- النايب! مفيش حد عبرنا يا اخويا، ولا هيتعمل الكوبري في سنته، باين إحنا الي كوبري للنائب وللحكومة.

عادت سيدة تجر خلفها أذيال الخيبة وذكريات سببت جروحًا لا مداوي لها، تنعي حظها وحظ القرية، حتى خالها الناس قد جُنت، عبرت السكة غير عابئة بأي قطار قد يفاجئها حتى وصلت للبيت.

ارتمت في حضن أختها الصغرى، قد انتقلت للعيش معها بعد وفاة ابنتها «سُنية»، بيت حفيظة لم يكن يبعد عن بيت «سيدة» الكثير، شارع فقط، عبارة عن دور واحد مكون من ثلاث غرف وصالة وحمام ومطبخ، «حفيظة» لم تُرزق إلا بولد عمره أربع سنوات، وزوجها يعمل في البناء.

مددت سيدة جسدها على السرير ورفضت أن تأكل،
صرخت حفيظة فيها:

- هتموتي! اللي بتعمليه ما منوش فايده.

- مش مهم.

- سنية مش هترجع بعنادك دا!

- عارفة، المهم ما فيش حد تاني يموت، هي كفاية!

- أنت حرة، الأكل جنبك، أنا داخلة أنام.

أكلت سيدة من صحن العدس بعد أن غادرت أختها،
بقيت في فرشتها مُلتفة ببطانية متهالكة عمرها من عمر سنية،
قد اشترتها حين علمت أنها حامل، ومن ساعتها لا تلتف إلا
بها .

في الليل بعد أن عاد زوج حفيظة وأتم عشاءه، دخل غرفة
النوم فوراً دون أن يلف حتى سيجارة له، تعجبت سيدة من
هذا فهي تعرف جيداً طباعه فهو ابن عمها وتعرف أنه حين
ينتهي من طعامه يقوم بلف سيجارة من تبغه الرخيص مع
كوب شاي ثقيل، تبعت حفيظة زوجها حتى غرفة النوم،
وسألته ما به .

- وحشتيني! من ساعة ما سيدة بقت بتنام عندنا، وأنا
مش عارف أتلّم عليك .

- اختشي يا سعيد، سيدة برّة وهتسمعنا، والواد لسه نايم.

- مش هيصحا صدقيني، وسيدة زمانها نامت.

- إنت عارف إنها بتفضل صاحية.

- يووووه!

- خلاص يا سعيد، بس من غير صوت والنبى!

كالعادة لم يزر النومُ سيدة، تسمع من الغرفة المجاورة
تأوهات أختها وزوجها الذي لا يشبع، ورغم حرص حفيظة
ألا تصدر أي صوت، ففوة زوجها المفرطة تجعلها تتأوه بشدة.

سيدة لا تبالي بهذا الأمر، فمنذ وفاة زوجها عبد العال بعد
مولد سُنية بثلاثة أعوام، رضيت بقضاء الله ورفضت الزواج.

بعد عناء كبير مع النوم كحال كُلّ يوم نامت سيدة بعد
الفجر، وقررت ألا تذهب لمبنى المحافظة، صعدت للسطح
وأطعمت طيور أختها، فما زالت نائمة، وضعت العيش المبلل
وبقايا طعام الأمس للطيور، وجلست تشاهد القرية.

يا سلام يا ولاد، بلدنا حلوة بس من فوق، لو شوفتها
من تحت تصعب عليك نفسك، ومش بعيد ترمي روحك،
لو يتلموا حواليا وإيدهم تبقى في إيدي لتغير حاجات كثير،
البلح قرب يطيب والحر يشتد، سُنية كانت بتحب البلح
الأمهات والزغلول.

من بُكرة هاروح المحافظة، مش هسيب حقك يا سُنية
ولا حق الناس دي كلها، حتى لو مش عايزين يتحركوا،
أنا مش هسكت.

مر اليوم كسابقه باختلاف أن كان العشاء بصارة وعيش
درة، ونامت سيدة مباشرة لأول مرّة، فتحت عينها على خناقة
بين حفيظة وسعيد على مصروف البيت الذي لا يزيد بل
ينقص كلّ يوم، وبعد أقل من ساعة غادرت تجاه المحافظة.

في الثامنة كانت تقف أمام المبنى مع دخول الموظفين
لأماكنهم، سيدة كانت تسميهم بالملح وجوده يكمل
الطبخة ويساعد على تسويتها، اشترت رغفين فول
وواحد فلافل، وراحت تأكلهم وهي تتابع بعينها التي لا
تمل، صاحب العربية يعرفها جيداً فهي تشتري منه في كلّ
مرّة تأتي فيها، يدعو لها ولا ينتها، ويشاركها الدعاء على
أصحاب البدل السوداء.

أنهت الإفطار، وحين رأت عربية المحافظ انطلقت
مُسرة ناحيته، أخرجت بطاقتها ووقفت أمام الباب،
حتى إنها سبقت الحُراس وقامت بفتحه:

- يا سعادة اليه أنا سيدة، من قرية التحويلة، عَشانة
تبنا فيها كوبري، لأجل ما الناس تعدي من عليه، بدل

سكة القطر الي كل يوم واحد يموت عليها، كفاية بنتي
سُنية ماتت.

- عارفك يا سيدة، بس الميزانية متسمحش، وبعتنا
للنائب بتاعكم، وقال مفيش سيولة ولا حتى تبرعات
الناس تسمح، وبعد إذلك عشان عندي اجتماع مهم.
- بس ده كان واعدنا، والمحافظة وعدتنا، كُل واحد عايز
مصلحة من التحويلة بيوعدها بكوبري ومدرسة جديدة،
ولا حاجة بتتعمل، ده حتى الوحدة الصحية في يوم هنصحها
ونلقاها كوم تراب.

رجعت سيدة تجلس بجوار عربة الفول، وصاحبها
يهون عليها:

- ربك كبير يا بنتي، كله بأوانه، ارمي حمولك على الله.

- ما أنا رامياها من زمان، وراضية.

ملمت نفسها، وأخذت توصيلة للقريه، كانت تبكي بشدة،
وحين يسألها أحد لماذا تبكي، كانت تقول: بنتي ماتت.

غادرت العربة، ووقفت على شريط السكة، المارة يُخبرونها
بأن تتحرك، وهي ترد عليهم: «مستنية قطر يوديني لبتني!».

بيسوا وأنا

كنت كلما أود الهروب من بؤس الحياة وشقائها، تقع
المصائب والويلات على رأسي مهشمة إياه إلى قطع صغيرة،
كل قطعة منها في ركن بعيد، وأظل طوال الليل أجمع في
القطع، حتى أعيد تركيب رأسي مرّة ثانية، علّ هذه المرّة
تتقبل الحياة بما فيها، تصمت عن التفكير ولو قليلاً.

وخوفاً من تحولي بمرور الأيام إلى دمية قطنية تتشرب
كل ما تودُّ الهروب منه، أُلجأ إلى حضن أمي طالباً الحماية!
عمري سبع وعشرون، ورغم هذا أخجل من احتضانها!

رغم الخجل، احتضنتها، وبعد انتهاء الحزن، روجتُ
أهيمُ وأغرق في كتبي!

كنت أعرف مسبقاً في أي الكتب سأبدأ القراءة.

بخفة شديدة التقطتُ الكتاب من المكتبة، أعددتُ كوباً
من الشاي، على مهلٍ شديد بدأتُ في التهام هذه الوجبة
الدسمة.

عفوًا لن أخبركم اسم الرواية!

يوم كامل على هذا الحال، لا أفعل شيئاً إلا تناول
الشاي مع الوجبات الخفيفة بين الحين والآخر، بجانب
الوجبة الرئيسة بالطبع التي شرعت فيها صباحاً بعد
حزن من أمي.

مبهجٌ صحيح أن تشرع في القراءة بعد حضن!
لوهلة توقفت عن القراءة، بقيت صامتًا، التقت عيني
في هذه الأثناء بجملة قائلها بيسوا:
«أريد أن أفقد عادة الصراخ نحو الداخل!».

بقيت محمّلًا في الجملة، لا أستطيع عبورها، أحدث
نفسي: نعم أنا هذا الشخص، أنا من يصرخ بداخله،
يصرخ صرخة تُحدث شروخًا في كل ضلع بداخله. لا أحد
يسمع، لا أحد يأبه.

لكنه لم يتعلم الصراخ أبدًا نحو الخارج في وجه كل شيء
قبيح وظالم، هذا خطؤه هو فقط!

كان صراخه نحو الداخل، الداخل فقط!
أحيانًا أجد نفسي أفعل أشياء غريبة، أمورًا طائشة، ولا
أفقه لماذا أنا أفعلها!

«هذا نتيجة للمرض الذي أنت مصاب به»، هذا ما
أخبرني به طبيبي النفسي، في آخر جلسة بيني وبينه.

لا أخفي عليكم أنني مصاب بمرض اضطراب ثنائي
القطب، تمامًا كما كان فرناندو بيسوا شاعري المفضل
مصابًا به.

نصحنى الطيب بتناول بعض العقاقير التي تُسمَّى
بمشتات المزاج! وهل يعقل أن يكون للمزاج ثبات على
حال ولا يتغير؟

أذهب للطبيب سرّاً، ما يقرب الآن من شهرين وأنا
أتردد عليه، أتناول جرعات العلاج مثل «التوبرامات»
و«الغابابنتين» وأشياء أخرى لا أذكرها تنتهي بحرف النون!
أعرف أنه من الخطأ عدم إخبار الأهل أو بعض
الأصدقاء بمرض كهذا، لكن أنا أيضاً مُصاب بمرض
لعين اسمه «الخلجل».

منذ ذلك اليوم وكلمات بيسوا تلاحقني في كل مكان،
ولا هرب من ذلك، أنا أحب بيسوا وأشعاره، نصوصه
ورسائله، حتى معطفه وقبعته ذات اللون الأسود.

أنا تعبٌ، عيناى حمراوان من فرط السهر، والنظر في
الكتاب، بين الحيرة في الاستسلام لنوم عميق، أو استكمال
الكتاب والبقاء مع بيسوا مزيداً من الوقت!

في الأخير تغلّب النوم على كل شيء، نمت في مكاني
حاضناً الكتاب، كأنه حبيبة لي أخشى بعدها عني.

مكان غريب وجدت نفسي فيه، الشمس قوية،
الأشخاص غرباء أو أنا الوحيد الغريب هنا.

في أي حلم وقعت؟

لو أن والدتي هنا، لقات على الفور: هذا نتيجة القراءة
الكثيرة، والعوالم المتخيلة في ذهنك.

ربما هو حلم، ربما هو واقع!

لكن كيف أعرف أن هذا حلم أم واقع؟

لم أفكر كثيرًا بشأن هذه الألغاز، بخطى الخائف
والغريب عن المكان روحت أتجول فيه، محاولًا استكشاف
معالمه.

بناء حجري ضخّم له قبة!

بلغة عربية أسأل، لا أحد يفهم، بصعوبة ازدردت ريتي
وحاولت التحدث بلغة إنجليزية.

أتّ المحاولة بنتيجة، أخبرني أحد المارة أن هذا المكان
وهذا البناء الواقف أمامه هو دير جيرونيوموس!

خلفه رددت الكلمة، مجزئًا إياها كمحاولة للفهم هكذا:

دير - جيرو - نيمووس!

يهز رأسه.

أشكره، ويغادر.

هو بناء حجري ضخّم له قبة، أنا أعرف هذا المكان
ربما قرأت عنه سابقاً، أحاول التذكر، لا جدوى من ذلك.
جلست على مقعد خشبي أمام البناء متأملاً إياه،
صوت موسيقى هادئة تأتي من بعيد، إيقاعها جعل رجلي
اليمنى تتجاوب معها.

أفترج على المارة محاولاً عدم التورط في أى شيء، أعاين
ما يحدث أمامي بصبر وعن كسب، بالتأكيد أنا في حدث
غريب واستثنائي، لنستمتع إذن بهذا المنظر، تلك اللوحة
الحية أماننا الآتية من عصور عابرة.

خائف من أن يعترضني شرطي ويطلب جواز السفر!
كيف سأتيه أنا بجواز السفر؟ وهل للأحلام تأشيرات
أو جوازات للسفر؟

الآن فقط أعلم أن هذا حلم، وكيف لا يكون حلماً؟
لا بد أن يكون لهذا الحلم مغزى! وإلا كان هذا الوقت
هباء، وإن لم يكن لهذه الحكاية مغزى فعلى الأقل قد
استمتعت قليلاً بالمنظر، وبالموسيقى ذات الإيقاع الجميل
الذي بات محبباً لأذني.

اتخذت قراراً بدخول الدير وليحدث ما يحدث إن
اعترضني أحدهم.

ما علاقة الزمن بالصدفة، هل لهما دخل فيما أنا واقع فيه؟ ولماذا أصر على دخول الدير، ما الذي ينتظرنى بالداخل؟

صعدت درجات سلم الدير، الحراس لا يمنعون أحداً من الدخول، الحظ في خدمتي هذه المرة ربما تكن المرة الأخيرة، فأنا أعلم حظي جيداً.

بخطى الذاهل وطأت قدمي المكان، أتلفت يميناً ويساراً، عيناى معلقتان بالسقف بالنقوش والزخرفات، أذنى يخطفها الحديث الدائر بلغة لا أفهمها قريبة من الإسبانية! يداى فى جيب البنطال الأسود، الآن فقط ألاحظ أنى أنتعل حذاءً!

أنتقل فى كل ركن، فجأة أسمع مجموعة قريبة منى تذكر من حين لآخر اسم «بيسوا»، أقترب منهم، لا بل أحاول الالتصاق بهم!

يشيرون بأيديهم على علامات فى خريطة صغيرة، ظهرها أبيض ووجهها أخضر، فتاة شقراء ذات عين زرقاء تشير نحو باب خشبى، يتبعونها، أتبعهم وأسير خلفها.

أحاول التكلّم مع أحد الأشخاص فى المجموعة، يستجيب أخيراً للغتى الإنجليزية الضعيفة المرهقة، ما فهمته أنهم متجهون لقبر ما!

يُحدث الباب الخشبي صريراً، تدخل المجموعة بالكامل،
أسمع دقات قلبي، أنحي رأسي.

تتكلم الفتاة، تركيب الغرفة جعل لصوتها صدى،
تشير نحو القبر بابتسامة جميلة قائلة: «نحن الآن في
البرتغال، مدينة لشبونة، بالقرب من شاطئ أبرشية، دير
جيرونيموس، تحديداً أمام قبر الشاعر أنطونيو فرناندو
بيسوا!».

أضع يدي على فمي حتى لا أصرخ، يا للمفاجأة!

أي أمنية هذه التي تمنيتها، كيف وصلت إلى هنا؟

أنا الآن بجوار بيسوا الذي مات وعمره سبع وأربعون
سنة تماماً مثل السن الذي تُوفي فيه أبي، يا للمصادفة
الغريبة.

كيف يمكن أن يكون التشابه بيني وبين بيسوا هكذا؟

اقتربت مني الفتاة التي كانت تتحدث بلغة إنجليزية
قائلة: «يبدو أنك مشدوه تماماً للحد الذي جعلك مسمراً
عينيك على قبر بيسوا، ولم ترفع عينك نحوي!».

ها... أنظر إليها، أجمع الكلمات في رأسي، إنها جميلة بحق!

بصعوبة أقول: «بيسوا شاعري المفضل وقد قرأت
كل ما كتبه، كيف لا أكون مشدوهاً إلى هذا الحد، وأنا

واقف أمام قبره؟ كما أنها المرة الأولى التي أكون فيها هنا، اعذريني أني لم أكن أنظر إليك، لكنني كنتُ متبهاً إلى كلامك جيداً».

- أنا أيضاً أعشق بيسوا، وهو من شعرائي المفضلين، حتى إنني درست الشعر والكتابة الإبداعية بسببه.

- عظيم، أنا أيضاً أحاول الكتابة، لكن هي محاولات في طور بدائي.

- مهما كان مستوى كتابتك، فيجب أن تكون فخوراً به.

- عندك حق في هذا.

تبسم، يبرز جمالها أكثر، هذه الأعين الزرقاء وهذا الشعر الأصفر الناعم، مع بعض النمش القليل على أنفها ووجنتيها الموردين، يا الله لم أرَ جمالاً مثل هذا من قبل!

تشير بيدها أمام عيني قائلة: إلى أين ذهبت؟

- عفواً، لقد كنت أفكر.

أقول سرّاً: لا بل كنت غارقاً في جمالك!

- هل تسمح لي أن أقول لك شيئاً، لكن لا تعتبري كلامي نوعاً من تخطي الحدود.

- تفضل

- أنتِ جميلة جدًا، لم أكن أعتقد يومًا أنني سأشاهد
أحدًا بهذا الجمال.

صمتُ قليلًا، الابتسامة لم تغادرها، تنظر في عيني،
وتقول: شكرًا، هذا لطف منك.

أرد سريعًا: صدقيني هذا الكلام ليس بمجاملة، واغفري
لي لغتي الإنجليزية الضعيفة.

- لا عليك، كما أني لم أعتبر كلامك مجاملة، ولغتك
ليست بضعيفة طالما أننا ما زلنا نفهم بعضنا، وأشكرك
مرة ثانية.

نظرت نحو مجموعة من الكتب في يدها، أخرجت كتابًا
وقالت: «أرجو أن تقبل مني هذه الهدية، هو كتاب ليسوا
يحوي بعضًا من نصوصه ورسائله».

أخرجت قلماً وفي الصفحة الأولى كتبت «إلى صديقي
الغريب».

بفرح طفل أخذت الكتاب: «شكرًا لك، هذه أجهل
هدية حصلت عليها في حياتي».

غادرت ملوحة بيدها، ولم يتبقَّ إلا أنا وقبر ليسوا
والكتاب الهدية منها.

صحوت من النوم، أنظر إلى الساعة، هي الآن الثانية
بعد منتصف الليل، أتمتم: «حلم جميل، آه لو يتحقق».
أطوح يدي، يقع كتاب من جوارتي، أقوم فزعاً، ألتقط
الكتاب، ما هذا؟

إنه الكتاب الذي أعطتني إياه الفتاة في الحلم! ما الذي
أتى به إلى هنا؟

فتحت الكتاب على صفحة الإهداء، قرأت بالإنجليزية
جملة «إلى صديقي الغريب» مراراً وتكراراً، بعد تنهيدة
طويلة قلت: «كُلُّ شيء في الأحلام جائز».

عين القطه

وَكُنْتُ كَالسَّكَرَانِ لَا أَعْي لِنَفْسِي حَالًا، كُلُّ مَا أَذْكَرُهُ أَنْ
الدُّنْيَا ضَاقَتْ بِي، فَسَعَيْتُ فِي رَحَابِهَا طَالِبًا بَعْضَ الرَّاحَةِ أَوْ
أَنْفَاسًا قَصِيرَةً مِنْ قَبْضَتِهَا الْكَثِيرَةِ.

مَشَيْتُ فِي شَوَارِعِ الْقَاهِرَةِ كَثِيرًا، شَوَارِعَ لَا نِهَايَةَ لَهَا، لَمْ
أَتَعَبْ مِنَ السَّيْرِ! بَاتَ مُحِبًّا لِي، اعْتَبَرْتَهُ مَهْرَبًا حَيْثُ لَا مَهْرَبَ
مِمَّا يَحْدُثُ!

أَذْكَرُ أَنَّهَا كَانَتْ لَيْلَةُ الْقَمَرِ الدَّامِي، ظَاهِرَةً لَا تَحْدُثُ كَثِيرًا.

جَلَسْتُ عَلَى مَقْعَدٍ خَشْبِيٍّ اِنْعَكَسَ عَلَيْهِ اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ
الْمُنْبَعِثُ مِنَ الْقَمَرِ، أَضْمَ صَدْرِي بِيَدِي النَّحِيلَةَ، أَرُغِبُ بِشِدَّةٍ فِي
سَيَّجَارَةٍ، أَيْ نَوْعٍ، فَالْجَائِعُ لَا يَرْفُضُ اللَّقْمَةَ مِنَ الْيَدِ الْمَمْدُودَةِ.
الشَّارِعَ فَارِغًا تَمَامًا مِنَ النَّاسِ، لَا يَوْجَدُ بِهِ إِلَّا بَعْضَ الْكِلَابِ
وَالْقَطَطِ الضَّالَّةِ، وَأَنَا.

لَا أَعْرِفُ مَا الَّذِي جَعَلَ الْكِلَابَ تَنْبَحُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ،
وَالْقَطَطُ تَصْدُرُ هَذَا الْمَوَاءَ الْمَزْعَجَ، أَعَيْنَ الْقَطَطُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ
كَانَتْ تَلْمَعُ بِشِدَّةٍ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُتَعَلِّقَةً بِشَيْءٍ إِلَّا بِالْقَمَرِ!
انْتَبَهْتُ لِذَلِكَ حِينَ وَجَدْتُ الْكِلَابَ تَقْطَعُ الشَّارِعَ ذَهَابًا
وِإِيَابًا، أَمَّا الْقَطَطُ فَكَانَتْ ثَابِتَةً فِي مَكَانِهَا تَمْوُءُ بِطَرِيقَةٍ وَحْشِيَّةٍ،
أَنْظُرُ إِلَيْهَا فَأَجِدُ أَعْيُنَهَا ذَهَبَتْ بَعِيدًا نَحْوَ الْقَمَرِ.

أحب الألغاز، وأقضي ساعات طويلة في حلها، عشقت الرياضيات منذ الصغر، لذا كنت دائم البحث عن أي مسألة حسابية تحتاج لحل، كبرت ودخلت كلية الهندسة وتخصصت في الميكانيكا، رغم هذا لم أعتبر الدنيا مجرد لغز أو عملية حسابية معقدة تحتاج وقت طويل لحلها، وربما ذلك الوقت هو عمرك! لكن أنا أعتبرها بسيطة حتى وإن بدت معقدة تشتهي تدمير خلايا الدماغ.

تقدمت قطعة بيضاء اللون في منتصف الشارع، وبدأت تموء كأنها تنادي على أحدهم، وتنتظر الرد!

انتظم خلفها كُّل القطط الموجودة في الشارع، حتى القطعة العرجاء المختبئة في كرتونة ورقية التي قدمت إليها من دقائق بقايا ساندويتش فول، وبدأوا يفعلون مثلها تمامًا كأنهم كورال، لكُّل منهم صوت مطلوب منه أن يبذل قصارى جهده في أدائه.

الغريب أن السكان لم ينزعجوا من هذا الصوت!

أربعة عواميد إنارة فقط في هذا الشارع الطويل، واحد بجوار المقعد، وآخر على أول الشارع، والثالث في نهايته، ورابع أمامي.

القطط كانت تقف أمام القمر تمامًا خلف قائدتهم، تموء مثلما تفعل، وتصمت إذا صمتت

ما أشاهده أمام عيني يجعلني أُجن، أم أنا بالفعل قد
جُننت، أم أن هذا تأثير الفول!

ما حدث كان كصدمة طائر غريب، ارتعش جسدي بأكمله
حين شاهدتني في مرايا كبيرة معلقة في الهواء في هذا الشارع،
انتظمت القطط أمام المرأة الكبرى المواجهة لي، تقدمت نحوها
بخوفٍ شديد، بدا شعر رأسي في المرأة أبيض كثيفاً، كذلك
ذقني، وزني زائد، وأحمل في يدي عكازاً، ما أشاهده الآن
شخص يشبهني، لكن في زمن آخر، أو عمره أكبر مما أبدو عليه.

اقتربت أكثر حين وجدت شيهي يتحرك أمامي في المرأة،
كأنه يمشي في طريق طويل، العرق يغمره، عيناه حزيتان
بشدة، ويحمل في يده اليسرى باقة من عباد الشمس، الزهرة
المفضلة عندي، إلى أين يذهب، ولمن هذه الباقة؟

بعد دقائق، مدَّ يده بباقة الورد نحوي، نعم عبرت
يده من المرأة ولمستني، يده فقط لا جسده بأكمله، أخذت
الباقة وتحركت للأمام مسافة قدمين حتى دفعتني القطط
داخل المرأة!

وقعت في عالم غريب، كانت الرحلة إليه دقائق
معدودة كأن تسقط في بئر لا تعرف نهايته، أثناء السقوط
كُنْتُ أشاهد حجارة البئر تتحرك ناحيتي وتضغط على
جسدي، تعصرني بقوة، كأنني وُضعت في خلاط، وتم

تشغيل الكهرباء فأصبحت أدور فيه ولا أعلم متى يتوقف.

سقطت على الأرض كأني حبة برتقال تسقط في غير
أوانها، وجدت كُلَّ القطط التي تركتها خلفي تقف أمامي،
وتدفعني ناحية كُرسي عملاق يجلس عليه رجل ذو هيئة
غريبة لا يرتدي ملابس، عيناه تُشبهان أعين القطط، وحين
تكلم بدا صوته شبيهًا بهم، تقدم نحوي متجاوزًا السلام
الكبيرة، وفي لحظة كانت عيناه تُحلقان فيَّ باتساعهما الكبير،
تراجعت خائفًا، فكرت في الهروب، لكن كيف مع هذه
القطط وهي تمتاز بالسرعة، وفي عالمها الذي لا أعرفه؟

بقيت صامتًا أنظر ناحية الأرض، كُلَّ جسدي يرتجف وقلبي
ينبض بسرعة رهيبة كأني اجتزت للتو سباق خمسمئة متر!

وضع يده المشعرة بشدة على كتفي، وراح يقول بصوت
يحاول جاهدًا أن يبدو هادئًا:

«لا تخف، أنت في عالمٍ مختلف تمامًا، عالم القطط!».

- القطط؟

- نعم، الهيئة غريبة لا تتفق مع هيئتهم، لكن الصوت
قريب، وهذا الشعر الكثيف، وهذه الأعين التي تُشبهك!

- تُشبهني أنا؟

- نعم هذا هو السر في اختيارك، أين باقة الورد؟

«الور... ورد»، نظرت بجواري فوجدتُ الباقية مرمية،
انحنيت بصعوبة لالتقاطها، لكنه سريعاً قال: «لا عليك،
سألتقطها أنا، فيدك مُكبلة».

- هززت رأسي، وبالفعل التقطتها مُستنداً على ذراعيّ،
نظفها جيداً من غبار تراكم عليها ووضعها في يدي.

- لا تفلتها ثانية، وجودك هنا مرهون بمدى استجابتك،
وسرعة البديهة عندك.

كُلّ القطط كانت تقف بجواري إلا القطّة البيضاء الكبيرة،
كانت بعيدة تنظر إليّ بشدة كأنها تود أن تخبرني بشيء أو تنبهني
من فعل شيء أحمق أنا مُقبل عليه، لا أعرف فنظراتي ناحيتها
انقطعت، حين وجدته منزعج قائلاً: ها الوقت يمضي، نعلم
جيداً أن حياتك بشعة، اختيارك لم يكن سهلاً، قدرك هو مَنْ
ساقك إلينا، باقي بضع ساعات والقمر الدامي سوف يختفي،
ونضطر للانتظار سنوات كثيرة لظهوره.

- أنا لا أفهم شيئاً مما تقوله، لم أنا؟ وما هذا الجنون الذي
يحدث؟ وأين أنا؟ وماذا تود أنت وقططك؟

- اهدأ يا فتى، الرياضيات علّمتك التفكير بسرعة وفي
دقة، أرى أنك متوتر بعض الشيء، وهذا جيد، من حقك
أن تفهم. حسناً، كما قلت نحن عالم القطط، وأنا كبيرهم،
بالأحرى كبير القبيلة هذه فقط، القطط الموجودة هنا، هي

ليست قطعاً بالضبط كان لها في السابق حياة مختلفة، جميعهم من البشر سواء نساء أو رجالاً، لكن فقط العذارى، كيف أتوا إلى هنا، القمر الدامي ظاهرة لا تحدث كثيراً، تضيف نوعاً خاصاً من السحر على البشر والحيوان، تجعل الاثنين قادرين على الولوج في جسد بعضهم البعض، هؤلاء كلهم اختاروا حياة القطط على مدار أعوام مديدة، تسأل عن هيتي؟ اम्म أصبحت هكذا لأنني تأخرت في الإجابة، فأصبحت نصف إنسان ونصف قط، نعم لا تستغرب، كُل شيء جائز، كنت مثلك غير مصدق، أدّعي أن هذا مجرد خرافة، لكن لا تقع في هذا الخطأ. معك من الآن ثلاث ساعات لتخبرنا بالإجابة!

- خذوه بجوار البئر، ضعوا له بعض المياه.

بالفعل وضعوني بجوار البئر، تاركين لي بعض زجاجات المياه، شربت كثيراً، وبدأت أفكر ماذا أفعل.

ساعة ذهبت هباءً، لا أخرج بحل، أتذكر أصدقائي وأحبائي القلائل، حياتي التعيسة في شكلها، لكن تخللتها السعادة أياماً، عملي الذي أحبه، ورغبة الحياة عندي حتى وإن كانت حياة هامشية.

في الساعة الثانية والثالثة حدثت أشياء غريبة، وجدت القطعة الكبيرة مجتمعة مع باقي القطط، تحادثهم بلغتهم، وينظرون ناحيتي بين اللحظة واللحظة.

انشغلت بهم لربع ساعة، بعد ثلث ساعة أخرى من التفكير، تقدمت ناحيتي القطعة البيضاء، كانت تتكلم كلاماً أفهمه، لغتي!

- يجب أن تذهب من هنا، لا تكرر ما فعلناه، كانت لنا حياة وفقدناها في لحظة يأس، هي حياة واحدة يجب أن تحياها.
- لكن...

- أعلم.. القائد ستعامل معه بقية القطط. يجب أن نمضي الآن وإلاّ علقت هنا، لا تود أن تحيا حياة خلقت لغيرك! عظيم نحن بجوار البئر، هذه هي وسيلة الانتقال، حاول أن تفك يدك المربوطة.

حاولت جاهداً فك يدي، بقيت عقدة واحدة لا أعرف حلها، قضمتها هي بأسنانها.
- ماذا أفعل أنا؟ ومن أنت؟

- تقفز في هذه البئر، دون تفكير وبسرعة! أما أنا فهي حكاية طويلة.
- هذا جنون!

- وهل ما نحن فيه يبدو عاقلاً بالنسبة إليك؟ اقفز!
قفزت في البئر، وتبعنني القطعة البيضاء، وكالمرة السابقة لم تأخذ الرحلة سوى دقائق، رأيتها تبتسم لي في هذه الدوّمات،

وَتُنِير بلمعان عينها ظُلْمة البئر، أقول من أنتِ بصوتٍ عالٍ؟
أرددها كثيرًا، لكنها تبتعد عني، تضغط الحجارة أكثر تكاد
تبتلعنا، رغم هذا أنادي عليها سائلًا من أنتِ؟ حتى وجدت
نفسي ممددًا على أرضية الشارع، وبجواري عدد كبير من
القطط، والقمر يغادر في هدوء، وهي تموء ناحيته.

السعد أحمد عبد العظيم

في يوم انتبه لفكرة، أن العمر ما عاد فيه أكثر من الذي انقضى، كانت المرّة التي يجد فيها نفسه يتحدث عن حياته، كأنها ماضٍ.

السعد أحمد عبد العظيم، يبلغ من العمر تسعًا وستين، في نظر الكثير عفيٌّ، لم يخنه الزمن بعد، وفي نظره أصبح عجوزًا كركوبًا، مكانه محل خردوات، قد باتت النساء تراه خارج الخدمة، لم يعد يسمع صوت أزيز السرير، ولا يرى نفسه يحث الخطى، بل جلّه مرتعشة تقوّست، كما انحنى ظهره، ورغم كل هذا، البعض يردد سرًا وعلانية أن السعد شاب أكثر من الشباب، ولو أن له أولادًا لشاب شعرهم قبل أن يشيب هو، لكنه غير مقتنع بكلامهم، ولا بتلك النبوة الممتلئة بشيء من الحسد.

فريدة زوجته، غادرتَه إلى رب رحيم غفور، منذ عشر سنوات، عرف فيهم لأول مرّة معنى كلمة الوحدة.

كان كلما جلس في مجلس يُقال له أسطوانة مشروخة: أنجب حتى لا تُصاب بالوحدة، طفل يحمل اسمك حتى الآخرة.

ويرد عليهم، كيف أصاب بالوحدة، ومعني فريدة؟ هي بتني قبل أن تكون زوجتي، وحييتي قبل صديقتي، وأمي في النهاية.

دائمًا يتباهى، أنه متزوج من العائلة المالكة، فيؤخذ بالسخرية، قائلاً: على اسم الملكة فريدة، فیربت أحدهم على ظهره، ويضحك آخر في وجهه، ويناوله من هو بجواره سيجارة.

تتحول السهرة للدندنة، فيردد معهم في نغم، كأنه عاد ابن السابعة في كُتَاب شيخه حافظ، ابن خاله زاهر، وهو يهتز حتى يكاد أن يقع على رقبتة فتقسم، فلا يعود هو ومن معه. الشَّلَّة لا يحددها عمر واحد أو حتى قريب، الأعمار متنافرة، والسعد الكبير هنا، عمراً ومقاماً، هم خمسة، موعدهم كل يوم بعد الثامنة، في هذه القهوة التي تأتي من حقبة عثمانية خالصة، الكراسي الأرابيسك، والساعة الخشبية العملاقة الموضوعة خلف السعد هذا هو مكانه، الأواني المنقوشة بحرفية عالية خرجت من صنايعي خبز فيها خبرته، الأكواب النحاسية والفضة، الزخارف في كل ركن بخط عثماني حفظ داخله أصالته، لا تستطيع أن تحدد أي طبقة هي رواد القهوة، الشعبية أم الراقية، لا يهم الكل هنا واحد، يشرب كما يشرب غيره، ويضيع وقته في الثرثرة أو لعب الطاولة.

جاءت صينية نحاسية مستديرة، على أطرافها أكواب طُلي جُزءٌ منها بالفضة، فتناولوا الشاي بالنعناع، أسمهان

تقرب من نهاية أغنيتها « ليالي الأنس في فيينا » كان قد كتبها رامي ولحنها فريد، السعد هو ببساطة مُسجل للأغاني القديمة، متخصص في الست أم كلثوم، وعبد الوهاب، وأسمهان، في أوقات فراغه كان يُسمع ضفادعه الصغيرة مع سلحفاتة أغانيهم، فيصبح الحضور هم فقط، استقرت الضفادع الثلاثة مع السلحفاة المعمرة، جلسن يستمعن للست مع السعد تغني « حب إيه » كان قد تذكر هذا، حين وصلت أسمهان للنهاية، ودخلت الأغنية التالية بعزف رشيق على آلة العود مع الكمانجات بعد هتاف من الحضور باسم الأغنية « حب إيه! ».

يقابله اثنان، ومثلهما على يمينه، كأنهم حواريوه، وهو في الوسط يتم الخمسة.

أنت عارف قبله معنى الحب إيه؟

يسأل السعد شلّته في جدية، وينخلع الجالس أمامه:

- والله ما أعرف!

مشيرًا للجالس يمينه: طب أنت تعرف؟

- علمي علم اللي جانبي، يا عم سعد.

يختصر الألف واللام فيضيع ميزته.

- وأنت؟

- ما سبقش ليا تجربة!

هَمَّ من بجواره أن يجيب، لكن لم يصدر منه إلا همهمة،
فترجع قائلاً: «قولنا يا عم سعد، معناه إيه؟».

اتكأ على عصاه الأبنوس المنسابة في رشاقة ورقة،
وأغمض عينه قليلاً، فوجد أمامه فريدة في صباها، أول مرّة
رأها، بنت الجيران طيبة السمعة، جميلة الهيئة، ذكية العقل،
فهو الزينة، ولم تدم الوقفة في البلكونة طويلاً حتى خطبها،
كانت صامته لا تتكلم، تبسم فقط.

خرج من غفوته، وكانوا جميعاً في انتظاره:

- معرفش، مفيش حاجة محددة، كنت فاكركده من
شويه، بس أقدر أقول إن الحب بالنسبة لي هو فريدة! كل
واحد يدور ليه على معنى.

التقط العصا، ونغز من بجواره حتى يحاسب له، وهمَّ
خارجاً من القهوة، بداخله قوة غريبة، وشوق وحنين
لزوجته.

يناديه من نغزه: «رايح فين، لسه دور الطاولة، ليّا
يومين متغلبتش!».

- زيارة بقاها عشر سنين متأجلة.

من شاهد السعد في هذه اللحظة، يُقسم أنه شاب في الخامسة والعشرين، يحمل العصا في يده ولا يستند عليها، لا تجاعيد في جبهته، واستقام ظهره، يركل الحصى في الشارع برجله، ويستشعر قوته، من أمدّه بهذا الأمل رؤيته لفريدة، عشر سنوات كانت الرؤية فيها شحيحة.

خرج من الحارة، وصعد الدرجات الحجرية، كل اثنتين منها بوثة متماسكة، البيوت على جانبيه متلاصقة بشدة، تخشى أن ينخلع أحدهم، فينهدم الحي بأكمله، الفرارجي عبده أغرق الشارع بمياه نتنه، جاءت به بالشتيمة من سكان الحارة، يخرج منديله الأبيض المخطط وقد طُرز بخيط رقيق اسم فريدة، فيمسح عرقه، ويتنهد طالباً العفو والمغفرة، كانت عمدان النور قد ابتعدت، وتظلم الدنيا شيئاً فشيئاً عليه، حتى لمح من بعيد ضوءاً خافتاً، المسافة بين آخر عمدان وأول عمدان يلوح له، تبلغ مئتي متر، كأنه الفارق بين النور والظلمة.

توقف وهاتف في رأسه يخبره أنه ليس بالوقت المناسب لحضوره، فيرد السعد عليه: «جاءتني ولا أستطيع أن أردّها خائبة».

ثلاث خبطات على باب قديم متهالك، فتح صاحب
المكان يفرّك عينه، ويتأمل السعد قائلاً:

- من؟ السعد أحمد عبد العظيم عندنا!

- مفاجأة يا علي!

- طال عمرها عشر سنوات يا سعد، تفضل.

- لا، أعطني كشافاً، أو أي شيء ينير لي في العتمة.

«دقيقة»، وأحضر له كلوب أناره من سيجارته المشتعلة.

- هات يا علي.

- هاجي معاك، الطريق واعر.

«خليك هنا يا عجوز»، وضحك فبانت أسنانه الصفراء.

أخذ الكلوب في يده اليسرى، وعصاه الأبانوس في يده
اليمنى، وعدّ من اليمين

واحد، اثنان، ثلاثه، أربعة.. أربعة صفوف لا غير..
كانت في الصف الثاني، خُصص للنساء والبنات الصغيرة
من قديم الأزل، وباقي الصفوف للرجال، هذه هي
تقسيمه المقابر.

قَرَّبَ عصاه من فمه قائلاً: يا رب الذاكرة تشتغل، لحسن الواحد بعافية، فريدة في الصف الثاني مع باقي زميلاتها في المقبرة السادسة، تقدَّم في الصف إلى أن وصل، ووقف أمام مقبرة زوجته ووضع الكلوب على المقبرة من فوق فأثار المكان كله، وقرأ بصوت مسموع: السلام عليكم عباد الله، أنتم السابقون ونحن اللاحقون، قريباً يا فريدة.

افترش الأرض بشاله، وتربع كأنه في خلوته:

عشر سنين يا غالية، سامحيني، أنا عارف إن رجلي مضعفتش عشان آجيلك، بس أنا كنت رافض فكرة إنك ميتة، وأنا لوحدي في الشقة كنت بشوفك، وأكلمك، ويمشي يومنا تمام زي زمان، الصبح نفطر فول الولا سيد بالزيت الحار مع حنتين بتنجان مخلل، وقرصين طعمية، أشرب معاك الشاي الأخضر زي ما قالك دكتور الوحدة، وأنزل القهوة، أطلب شيشة وشاي بالنعناع، سامحيني إني كنت بعمل دا من وراك، بس انتِ عارفة يا فريدة، ولما بروح مش بتقولي حاجة!

بتبوسيني من خدي، وأنا أبوس وش إيدك، ويخلص اليوم واحنا بتتعضى قدام التلفزيون، أو وانتِ بتلاعبيني طاولة في البلكونة، بطلت ألعبها في الشقة من ساعة ما غبتي يا غالية.

من خمس سنين بدأت أفوق، وأعترف إنك مِش
راجعة، عشان كده كنت بنام في الصالة، وأنتِ بتعاقبيني
بعدم الزيارة في منامي.

بس أنا شوفتك النهار دا، وأنتِ صغيرة، أول مرّة
اتقابلنا يا فريدة، فاكرة؟

أنتِ سامعاني صح؟

كان لازم ألبّي طلبك، وآجيلك هنا والوقت، ومستناش
لبكرة، حتى لو ساعة متأخرة، كله يهون في سبيل إني
أشوفك، واتونس بيبك وأنا جمبك.

فاكرة الست يا فريدة؟

الجيران قالوا عليّ مجنون لما كنت بشغلك أغانيها وانتِ
مِش موجودة، بس هما معذورين ميعرفوش معنى الحب
إيه؟

بس أنا عارف، الحب يعني فريدة، قربها وونسها يقويه.

سيرةُ غائب

كانت الغرفة مظلمة، لم يرَ الاثنان إلا الوجه، تربع
ويتمان مُقلداً الحلاج في جلسته، واضعاً يده اليمنى على
جبته، والأخرى كانت تُصدر حركات تخرج من جسده
تلقائية، حين بدأ في شعره.

لم يدر الحلاج وجهه لمسجون معه منذ ليالٍ، إلا أن دخوله
الحجرة المظلمة الكثيفة كان مُربكاً للكل، مثيراً للدهشة، لم
تكن من ملابسه، كان يرتدي مثل ما يرتدي الآخرون،
يتحدث مثلهم، إلا أن عين الحلاج سريعة متقدة، تعرف
الغريب التائه، ويده دائماً ممدودة، لا يتأخر ثانية عمن له
حاجة، وهذا حالته داعية للخروج من العزلة.

- غريبٌ ها؟

- وتائه!

- من أين أنت؟

- لا أذكر، الأمر مبهم بالنسبة لي، كنت أقرأ في ذاك
الكتاب القديم، المتهالك مثلي، ونمت فجأة، ثم صحوت،
وجدتني أرتدي هذه الملابس الغريبة، لساني لا أعرفه،
يتحدث بلغة مختلفة عما أذكره، أقول الشعر وأجري، عابراً
من مدينة لمدينة، حتى جئت إلى هنا، نمت أمام باب له
فتحة دائرية كبيرة، تمكنك من مشاهدة ما يحدث داخل

البيت، بكل بساطة، كنت أنا الوحيد الذي يشاهد، رغم أن المرة كُثُر، لا أحد يتوقف ليفعل مثلي، أو يتتابه حتى الفضول، كان بيت قاضي المدينة، في صحن الدار كانت جالسة، تُسرح شَعرها، آه لو رأيتها، شَعرها هذا، طويل جداً، تربعت واضعة على حِجرها قماشة، وبمشطٍ أسنانه رفيعة، جذبت ضفيرة، فكتها، ثم حاولت جاهدة أن تسرحه. وبعد لحظات من يأس وحيرة، نادى على سيدة أخرى، لم تكن كبيرة، جسدها كان يافعاً، عيناها واسعتان، ممتلئتان بالكحل، أعطتها المشط، وجلست خلفها، بدأت تمشطه، ولتحل التشابك كانت تضع المشط في كوز جوارها، ثم تخرجه يتقطر منه الزيت، بعد لحظات فقط، شَعرها هذا لم أجد في مثل لمعانه، بدت أنيقة، خصوصاً بعد أن ارتدت ذاك الثوب، لا تنظر لي، كانت مرتدية قميصاً أبيض، ولم يكن شفافاً، ربما كان! الرؤية من هذه الفتحة، وهذه المسافة صعبة. تكرر معي هذا الأمر أياماً، كنت أنتظر موعد خروجها لصحن الدار، حتى تفرش الأرض، وتضع على حِجرها تلك القماشة، وتحاول أن تمشط لنفسها شَعرها، مستسلمة فتنادي، ماذا كان اسمها، كأنه فاكهة، إذا ناديتها جعت، نعم، جميزة!

- حكايتك طويلة، كرحلتك تماماً.

- ينادوك ب...؟

- حتى هذا لا أعرفه، سَمِني إن شئت!

- غريبة، أول مرّة يدعوني أحد لتسميته! ما رأيك في
عشاب؟!

- ها؟

- عشاب، أي من له صلة بالعطارة.

- جميل، كأن له علاقة بأوراق العشب!

- أستطيع الآن معرفة ما الذي جاء بك إلى هذا المكان المنسي.

- نعم، قاضي المدينة كان في سفر، وعاد، وجدني، نائمًا
أمام فتحة بيته، أنظر بكل بجاحه لزوجته، تأملني لحظة،
فتح الباب الخشبي الكبير، قائلاً بصوت عال: من أنت؟
لم أجب. من أين أنت؟ لم أجب. صاح على عسكره، قائلاً
له: خذوا هذا المجنون. ثم جاؤوا بي إلى هذه الزنزانة،
الضيقة، المعتمة، التي تصيب البصير بالعمى، مُسلمة إياه
للوقت متأرجحًا على عتبته. إلى أي مدى يمكن لي التواجد
هنا؟

- إلى أن يموت القاضي، أو تحدث المعجزة!

- أي معجزة؟

- أن تموت أنت.
- كأني ارتكبت جريمة.
- هنا، تحاسب على النظرة، على الكلمة، وما تخفيه نفسك، وما لا تعلمه.
- ما هذا الرعب، كيف تقدرّون على العيش هكذا؟
- الناس تعوّدوا الصمت، وإلّا وضعوا تحت أعواد المشنقة، كثيرة هي هنا، موجودة بدل أعمدة الإنارة.
- أخبرني أين أنا؟
- بغداد، مقر الخلافة العباسية.
- ومن أين أنت؟ يبدو عليك مشقة الرحلة؟
- من البيضاء، مدينة من مدن فارس بإيران، شمال مدينة شيراز، التواجد هناك صعب، الحركات الانفصالية كثيرة، جزء كبير من إيران تحت حكم السامانيين، ولا حتى بغداد آمنة.
- أنا بلا دي بعيدة، بيني وبينها أزمّة.
- تسمح لي بالجلوس، تصعب رؤيتك، الغرفة معتمة.
- تفضل، المكان ملكك، لا أملك شيئاً هنا، إلّا هذه الكومة.

- ما هذه؟

- خذ، اقرأ، علك تفقه!

- هذا خطك؟ تكتب فيه من مدة، كأنك تحمل من مسافة طويلة.

- من اليوم الذي اعتقلت فيه، وأنا أكتب هذا الكتاب، لم أنم ليلة إلا وأحمل عبء كتابته.

- كتابك الأول؟

- لا لا، بكتابي هذا، يبلغ مجموع ما كتبه تسعة وأربعين، آخرهم كتاب في السياسة، عنوانه (السياسة والخلفاء والأمراء) وأهمهم، وهذا أخشى أن يكون آخر ما تخطه يدي، في هذه المحنة.

- لا تحمل نفسك أكثر من هذا.

- كل ليلة حين تغفل عيني، بعد أن تأبى يدي الكتابة، أحلم بهذا الحلم، أجدني في ميدان عام، وجمهرة كبيرة، قد علقت من رقبتني بجبل، لثلاث ليالٍ، تأكل الطير مني، حتى صرت جيفة.

- بدأت أتأكد أن هذا المكان قادر على تحويلي إلى جثة حية.

- قريبًا يا صديقي في العتمة.
- قل لي، ما اسم الكتاب، أم لم تستقر بعد؟
- الطواسين!
- ما معناه؟ وما غايته؟
- في القرآن الكريم، ثلاث سور متتالية، الشعراء والنمل والقصص، تبدأ بـ«طسم»، ثلاثة حروف، لا حرف، هو أحد عشر نصًّا، كتبتَه عن الإلهامات والآيات. من أراد الكتاب هذا خطابي، فاقرأوا واعلموا أني شهيد.
- تعرف، لطالما أفنيت نفسي في كتابة الشعر يا سيدي، حتى تنميت يومًا أن أصبح شهيدَه.
- الآن أعلم من أين اكتسبت هذه الغاية.
- تهت في بحارك، وإلى الآن لم أعرف اسمك.
- لم أكن أعرف أن بحاري واسعة، حتى تصلح للتيه.
- اسمي الحلاج.
- ليس غريبًا عليّ، أعرفه، كما أعرف الطبيعة، كما أعرف الكتابة.
- ما رأيك في هذه الظلمة يا عشاب؟

- بالنسبة لي: كل ساعة في الظلام والنور تُعد معجزة،
بالنسبة لي كل بوصة مكعبة في هذا الكون تعد معجزة.
- نعم يا صديقي، مَا حِيلَةُ الْعَبْدِ وَالْأَقْدَارُ جَارِيَةٌ عَلَيْهِ
فِي كُلِّ حَالٍ!
- الهَجْرُ صَعْبٌ يَا حَلَاجَ، هَجْرَانِ الْأَمَكْنَةُ، وَالزَّمَانُ،
هَجْرُ الْحَيِّبِ بِالْأَخْصِ.
- اِسمَعْ مِنِّي يَا عَشَابَ هَذَا:
وَإِنِّي -وإنْ أَهْجَرْتُ- فَالْهَجْرُ صَاحِبِي
وَكَيفَ يَصِحُّ الْهَجْرُ وَالْحُبُّ وَاجِدٌ.
- بَابُ الزَّنَانَةِ يُفْتَحُ، شَخْصٌ ضَخْمُ الْجَسَدِ، شَارِبُهُ
مَعْقُوفٌ، يَنَادِي:
- يَا حَلَاجَ!
- لَا إِجَابَةَ
- غَدًا مَحَاكَمَتُكَ أَمَامَ الْمَلَأِ!
- بِسُرْعَةٍ أَغْلِقِ الْبَابَ، وَعَادَتِ الزَّنَانَةُ مَظْلَمَةٌ.
- هَلْ هَذَا صَحِيحٌ يَا صَاحِبِي؟!

- قد قال، إذن صحيح.

- وما العمل؟

- غبت، وما غبتَ عن ضَميري

فَمَا زَجْتُ تَرَحَّتي، سُروري

- هل لنا لقاء؟

- واتصل الوصلُ بافتراقٍ

فصار في غيبيتي حضوري.

الفهرس

٩	فكرة ظلّ ما
١٩	موت نجمت
٢٩	بيت العجوز
٤١	لحظة في حضن الحياة
٤٩	بقايا ضوء
٦١	عيد الميلاد السابع عشر
٧١	العمّ إبراهيم ونعناع السبيل
٨١	رُوحِي مَقْبَرَةٌ
٩١	سمكة في حجم ورقة الخس
٩٥	ليل قابلة
١٠١	مريض عنبر رقم ستة
١١٣	إعلان عن قلبٍ وحيدٍ
١٢١	كوبري سيدة
١٢٩	يسوا وأنا
١٤١	عين القطّة
١٥١	السعد أحمد عبد العظيم
١٦١	سيرة غائب

